رواية

رقصات الرؤى المشوّشة

عمرو عافية

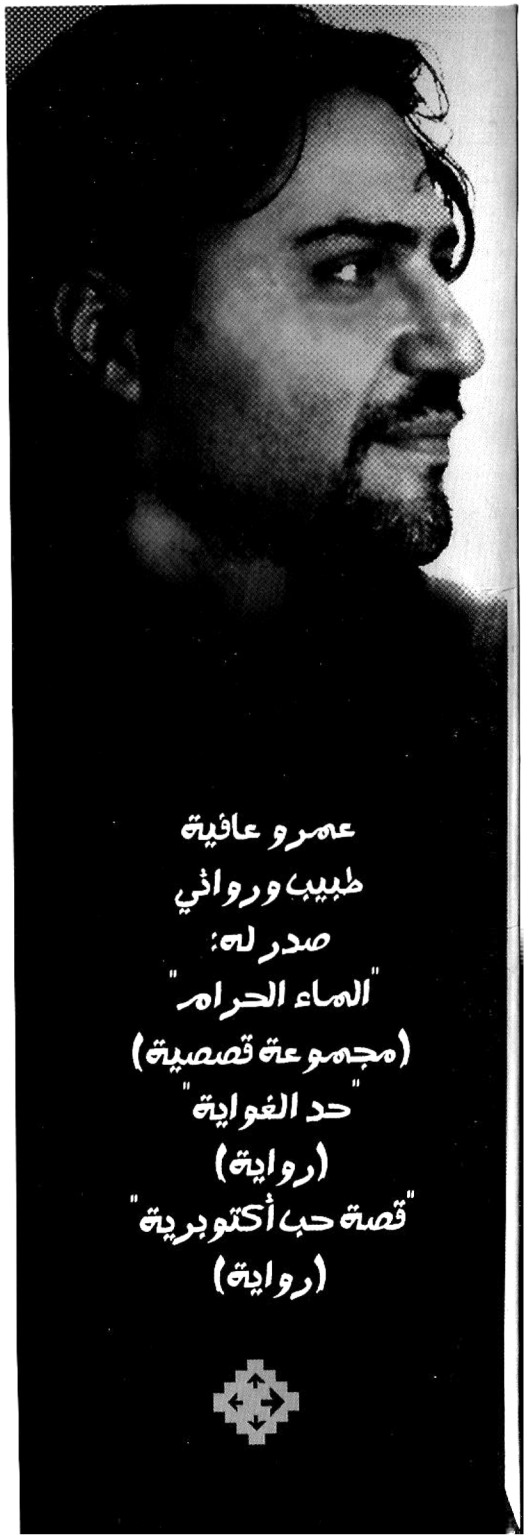

عمرو عافية

طبيب وروائي

صدر له:

"الماء الحرام"

(مجموعة قصصية)

"حد الغواية"

(رواية)

"قصة حب أكتوبرية"

(رواية)

دار شرقيات للنشر والتوزيع

رقصات الرؤى المشوشة

رواية

عمرو عافية

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات ٢٠٠٨

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت ٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨
sharq_ca@yahoo.com
www.dar-sharqiyat.com/admin

الغلاف: عمرو الكفراوي

عافية، عمرو
رقصات الرؤى المشوشة رواية / عمرو عافية — ط ١ القاهرة:
دار شرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨
٩٨ ص ٢٠X١٤ سم.

رقم الإيداع ٢١٨٠ / ٢٠٠٨ 977-283-283-6 تدمك
روايات — العنوان

ديوي ٨١١

عمرو عافية

رقصات الرؤى المشوّشة

رواية

دار شرقيات للنشر والتوزيع

ولكن هل كنت أنا حقا من يريد أن يحطمَ هذه اللعنة، أن ينفك من أسر ترددها؟ تلك اللعنة ناهشة لياليا وأيامنا، تلك التي تغلل أرواحنا بقيود مخفية، مدسوسة في أماكن نتمنى هجرها منذ أزمنة وأزمنة. لعنة اللفتات التي تترك في أفئدتنا بصمات لأماني وجلة مرتعشة، نعلم علم اليقين بإخفاقنا في تحقيقها أو حتى التفكير فيها.

هل كان على أنا أن أنسل من قوالبي المحفوظة في عوالم خفية إلى رعدة خطوات - خطوة تلو الأخرى- على درب محتوم لوحدة ملاحقة.

هل كان يحق لي فعلا أن أنهي ليالٍ من عذابات متصلة؛ آلام المحاولات الدءوب لحل طلاسم عتيقة فيّ أعماقِ الروح، التي ما أن نقترب منها حتى نخشى ضوع روائح منسية لذكريات وأحلام، لاشتياقات نخرت لكثرة الردع والحنين؟

أأصابني الكلل من هذا الألم الأصم الذي يفتت الجسد كله بهدوء غادر، يتشعب ويتحكم فيه بثقل بارد رطب حتى يفقدني القدرة على إتمام الدورات العادية لأيام سهولتها في تشابهها؟!

ولكن ربما كان هذا الألم هو الذي يُمَلكني جوهر الحياة نفسها، وهو الذي يجعلني أتواصل بعالم فقدت القدرة على الاتصال به سوى من خلال تحلل ذاتي بطيء. فهو الذي يجعل حدود الجسد على تماس مع ما حوله، فأجبر على التعرف على محتويات صغيرة عاطلة من المعنى ولكنها تتواجد وتواجدها هذا عنيف وقاس. هذا الألم الذي يشتعل في ذواتنا حتى يصهرها في لهيب اشتياقنا إلى الأصل أو الإثم.

- ١ -

(قاسم فاروقي)

نعم! أكرر: "قوانين الفكر الثلاثة" أولها "قانون الذاتية": الشيء هو نفسه ؛ أي أن "أ" هي "أ". "أنا هو أنا" ولكن ألم تكن أيضا "أنا هو هو أو "أنا هو أنت"؟ ألم يقل الحلاج لحبيبه "أنا من أهوى ومن أهوى أنا"، وطارت رأسه بالمعنيين؟ يقولون: "حقيقة الشيء لا تتغير ولا تتبدل" أين أنت يا حلاج الآن؟ حقيقة الشيء!؟..... الآن أنا هو أنا، أمّا غداً ...؟ ربما وجع الرأس هذا هو الذي لا يتغير.. ربّ مقولات تحُدُني عن عوالم مستحيلة ومشتهاة؟؟!!

لكن ها هو طيفي المرآوي يقف مفكرا هو الآخر في قوانين الفكر هذه. معكوسي أنا، المسمى مثلي "قاسم فاروقي على الأرجح. هو أو أنا، على كلينا أن نلتزم أو نحطم منطق هذه القوانين.

اختلفوا: "هل البدائي سابق على المنطق أم أن له منطقا خاصا به؟"

يؤمن البدائي بإمكانية وجوده في أكثر من مكان واحد في الوقت نفسه.... ولا تعطل له منطق!

أتخيلُ نفسي بدائي غابة، ألوحُ في عــريّ المــبهج المزهــو، أعرف خبر وجودي هنا وأتيقن وأدوم....

وأما القانون الثاني فهو: "قانون عــدم التنــاقض" ؛ لا يمكن أن تكون هي "لا أ" في الوقت نفسه. أبتسم ساخرا للــساحر الذي يقف أمامي، وللآخر الذي يتهددني في كل لحظة. أتخيله فــي منزله يقاوم جنونه، يستجمع كل ما في قــواه المنهكــة اســتعداداً للرحيل.

"خالد علم" هو "أ" عندما تكون "أ" و"لا أ" معا.... يجوز
أو لربما كان هو الإثبات التام للقانون، فهــو يــستعد لإنهــاء التناقض. ولكن هل أنا ألهو؟ دوري هو اللعب؟؟

يبتسم لي آخري المرآوي مواجهاً... أحارُ في ماهية شــعوري الحقيقي. يستفزني كالعادة بابتسامته الباردة.
يقول: "هناك كائن آخر في قلب الغرفة يتعــذب"، ثــم يــسخر ويكمل "أناي الآخر

لا سلوى تُنتــظر. أنا فقط من يتوسط حوائطي. يعلوني سقفي وانعكاساته ويغرقني اللون الأبيض المتكرر المعادي... الذي يدركه البدائي كخواء تام متعال، مانح مبهم لتعويذه قادرة على تحطيم هذا الوجود المزدوج لكل "أ" متوحدة ومغرورة.

كنت أبحث عنها، الشفرة التي تحلُ الطلسم. حل كرؤيا مُلهمة.
(هي) كانت بالنسبة إلى عقلي السلــكي البارد مجرد "نوع"
(هاء) محايدة. أما النفس التي تعرف وتختال فرحاً للمعرفة فكانــت

متيقنة أنها ولابد وأن تكون (هي) مالكة لكل أدوات التأنيث من (ياء) التفرد إلى (نون) الجمع، بين انحناءات الياء الحرة الشهية... وحنو الرحم النوني والاشتياق القاسي لنقطة الأصل.

وها أنا في مبدأ النهاية. أستعد لمغادرة المنزل. يرن جرس الهاتف برنة ملحاحة نافدة الصبر. أرفع السماعة. يأتيني صوته كأنسنة لفكرة مستحيلة جموح. كان علىّ أن أرحل دون أن أردَ على الهاتف، إذن فليكن للجحيم الكلمة الأخيرة. قال بصوت مثقل الحروف متهدج الكلمات:

النهاية آتية بلا ريب. لم أعد أستطيع الانتظار أو القتال أكثر من هذا.

حاولت أن أتصرف بحرية فقلت بهدوء وبنبرة متهكمة متعمدة:
ماذا؟ محاولة جديدة؟

ثم أصبح صوتي حادا ومتهيجا كنصل مُسن غير قابل للتحكم فيه أو الاحتكام إليه:
ألم أقل لك انتظر؟ ألا تفهم؟ أتريد سعيرا.....ها هو آت.
رد ساخطا:
رح مت.
وأغلق الخط.

أردد أنا مع أزيز الهاتف: "رح مت" وضعت السماعة وخرجتُ متجهاً إليها (هي).

وكما يليق بإله إغريقي عريق، إله صاحب أقدار بحق، بعد المحاولات الألف غير المجدية، أكافأ بـ (هي) المدهشة وأقول لنفسي بجموح أرشيميدسي: "وجدتها!".

في لقائي الأول بها، تابعت حركاتها بين الممثلين والمخرج.. إعدادها الدقيق للأشياء الصغيرة. كنت أعرفهم كلهم تقريبا بحكم عملي كناقد أدبي، كنت أتابع بروفات مسرحية جديدة عندما رأيتها من مقعدي في الصالة. غشتني طراوة طزاجتها ومتعة نكهتها.

لاحظ المخرج اهتمامي بها فمال عليّ قائلا:
مساعدتي الجديدة.
لم أسأله عن اسمها. شعرت أن ما سيكون بيننا لا يجب أن يجرح بحديث عام. ولما وجدني لم أرد قال:
أرى أن نقدك سيكون كله على مساعدتنا الجديدة. أتود أن تتعرف عليها؟
لا.

تعمدت في المرات التالية أن أهملها تماما. أتأملها فقط دون أن تراني. كانت تحوي هذا الشيء غير المفهوم المسمى "اللا منطق

أحسّت بإهمالي لها. فكانت هذه إشارتي الأولى، تتعامل مع كل من حولي وتتخطاني بكل يسر، فوقفنا معا على أرض محايدة وحدنا.
أبَشرُها وأمنحُها في سري قانون الفكر الثالث.. "لا وسط بين نقيضين"، إما أو "لا أ" وقفتْ هي بينه وبيني كوسط ممتع

لانهائي. ولكن أليس لكل حكم قيمة مزدوجة؟ ألا يقف المطهر كجحيمٍ ونعيم؟

تتابعت الحيل الخفية بيننا لوقت ما. كانت هذه الحيل مسلية وآية في الإمتاع. تحمل في داخلها بشائر عظيمة، وتتيح لنا أن نتناغش دون أي تماس حقيقي. متعبة للضمير ومرهقة للإحساس. إلا أنها كانت هذه اللعبة – تؤكد لنا تكاثف العالم الخاص الذي سوف يجمعنا.

وأخيراً، وبعد التشبع باللعب، حيتني عندما لمحتني. كنت أجلس في مقهى المسرح أرتب أوراقي وأنقح مقالي الأخير. عصية تكاد تخفي نفسها فيها، كما تؤكد فهمها التام للتتابع اللحني للعبة. ميقاتها الداخلي ميزان حق. إنها تنتظر مني أن أدخلها في لعبتي المأفونة. قد يكون لعالمها الخاص إدراك مبهم بما نفعل.

ولكن ما لقلبي – رغم زهوي – بالريح يرحل ويتقلص لعالم الخوف؟ وهل أخاطر وأعتمد على حدسي فقط. هل من الممكن أن أدعي لنفسي الامتياز لتفسير الحركات الكونية ودوائر الأفلاك؟

لا! على باليقين..... ولكن ألا يأتي اليقين أيضا على درب الهزل المضحك؟

أمسكتِ بورقة. تأملت خطوطها المتوازية الرهيفة وكتبت دون أن أفكر "ترى أي خيار متاح لنا في اعتقادك؟ الفن؟ الدين؟ أم الجنس؟"

طويت الورقة. ناديت الساقي وطلبت منه أن يوصلها إليها. انتبهتِ وراقبتِ ملامحها وهي تفتح الورقة. تنظر إلى قبل أن

تقرأها. خطر على بالي حل جبان". لو تأزمت الأمور فعملي يحميني، والسؤال وإن طرح نفسه بلا مقابل إلا أنه لا يخلو من انتظار لرد.. قد يكون مفتعلا منمقا....كاذبا يليق تماما بنا وبالعالم حولنا..

طوت الورقة بعناية ووضعتها في جيبها. تلفتت ثم أخرجت ورقة وكتبت عليها شيئا ما. قامت من طاولتها. سارت ببطء وبدون وجل. وضعت الورقة على الطاولة أمامي وانصرفت.

تساءلت "ترى ما هي قدرتها الحقيقية على الرد؟". فتحت الورقة وبخط دقيق رأيت كلمة واحدة: سالومي.

بُهت تماما رغم افتقادي لهذا الشعور منذ فترة طالت، إلا أن "سالومي كرد أنعشني للغاية وطمأنني. كأنه كان الحل دون أن أدري.

رجعت إلى البيت وهي تتراقص أمامي بغلالات تمهدني للعتق الحقيقي.

- ٢ -

(سالومي)

لم أكن أعلم أن نزوة في خيال أبي سوف تورطني في هذه اللعبة غير المتوقعة. كانت أمي ترفض كل الرفض فكرة مناداتي بـ "سالومي"، وهذا ليس عن وازع ديني ولكن من وجهة نظر أخلاقية بحتة. يتردد الاسم في سمعي خلف باب شبه مغلق وصوتها الحاد ينهر أبي لمناداتي بهذا الاسم: "هذا اسم يليق بعاهرة". غمغم أبي بشيء لم أسمعه، وعلى الأرجح لم تسمعه هي أيضا. "ثم ماذا يستهويك في هذا الاسم؟ قد أضحكت الناس علينا. أمنعك تماما أن تناديها هكذا. اسمها فقط. أتسمع!"

كان لأبي فكرة مختلفة عن الاسم وربما عن الشخصية نفسها، غير أني لم أدرك معنى كلامه ساعتئذ، وكل ما يرن في أذني ملمح الصوت الرخيم وهو يناقشها في سخرية كانت هي نفسها تعجز عن الإمساك بها.

أتذكر أن الاسم نزع من كياني بسبب لطمة قوية على وجهي من يد أمي أمام الجيران. كنت ربما في السابعة أو الثامنة من عمري وعندما سألتني جارتنا (امرأة جديدة لم أكن قد رأيتها من قبل، كان معها طفلان: ولد وبنت) عندما سألتني عن اسمي، ربما بدافع التعالي والتفاخر باسم أعرف أنه غريب وربما لإغاظة أمي

أيضا، أجبتها: سالومي!غير أن اللطمة القوية على خدي وخجلي الذي قتلني أمام الضيوف جعلني أنسى الاسم فجأة وكأنها صدمة عصبية. حتى دميتي الصغيرة التي كنت أناديها بسالومي -أيضا عندما أكون وحيدة أناديها بأي اسم يخطر على بالي إذا كنت أمام أمي، حتى دميتي هذه اختفت هي أيضا. وعندما كبرت وقرأت وفهمت، أدركت الاسم الذي ينادني به أبي. كنت أتساءل هل هي فقط نزوة من مدرس تاريخ مغرم تماما بسينما الأفلام التاريخية أم أنه أسماني هكذا نكاية في امرأته التي كان يدعوها أحيانا باسم لم أدركه في حينه: "روديا"

نعم يا هيروديا أنا ابنتك سالومي...

لمحته بثبات وبشكل واضح. عيناه طاغية تأمر دون سلطة واضحة..... ولكنه اختياري أنا. أنا أقر وأعترف! كان من الممكن أن أتجاهله كلية وببساطة يوم أن وجدته في مقهى المسرح، أوراقه منثورة أمامه على الطاولة. ربما أثارني البخار غير الملحوظ الصاعد من فنجان قهوته الفرنسية.... ربما فكك هذا البخار خوفي، ربما عزلني عن كل شيء عداه لنتواجد فقط أنا وهو. كانت هزة رأسي شبه آلية وأنا أنظر إليه، تحية مني اغتصبت، تقلص في عضلات الرقبة أكثر من كونها إيماءة حقيقية. كنت أعرف أنه يتحرك الآن. وعندما أتتني الورقة المطوية وقرأت ما كتب، بدا لي السؤال نفسه حلا لمعضلة طالما فكرت فيها. كان

السؤال كأنه أبخرة هذه القهوة. والإجابة أيضا كانت تتصاعد دون أن أدري إلى رأسي. ووجدت نفسي أكتب اسمي الذي كان ونسي.

كنت أفكر وأنا أضع الورقة أمامه، نعم هذا اسمي، لا أريد أن أعرف السبب، يكفيني هذا. نعم سالومي هو الحل الطبيعي الآن وما سوف يحدث لن أشغل به نفسي الحرة. ومهما حدث لن يخرجها عن رحبها..... فلم لا نشطط حتى النهاية؟

تنظر إلى أمي بارتياب وأنا أجهز حقيبة السفر وأضع فيها ملابسي. أستعيد ذكرى أبي الراحل وأبتسم لها وأنا أراها وهي تستند على باب الغرفة وراء ظهري معكوسة في مرآة الخزانة أمامي. لقد لاحظت توتري خلال الأربعة أشهر الأخيرة منذ أن عرفت "قاسم فاروقي

أبادرها:

مالك؟

أرى فيك عناد الأمس. عنادك وأنت طفلة.

لم؟ ما الجديد في الأمر؟

- لا أفهم ما الداعي للسفر

اعتدلت وتركت الحقيبة وواجهتها. أود أن أقول لها إني ذاهبة حيث لا أعرف النتائج. أود أنا أيضا أن أحرز نتائج ما. ولكن لم؟ جلست ثانية على الفراش.

ما الجديد في الأمر؟ ألم أسافر عدة مرات مع الفرقة من قبل؟ هل نسيت أنه عملي؟

نظرت إلى بتفحص.

إنك لن تسافري مع الفرقة. قد هاتفني المخرج منذ عدة أيام وسألته عن السفر. اندهش وقال إن العرض ناجح هنا ولن يكون هناك سفر إلا بعد فترة طويلة.

إنه ارتباط آخر. نوع جديد. ربما أداء لحظي حر..... كوميديا ديللارتي. تجربة عليّ أن أعيشها.

أمتأكدة أنت مما تريدين فعله؟

ما هي إلا تجربة!

أغراني وجهها المتقلص ببدء التجربة فورا. الآن؟ غير أني استدركت نفسي فقمت واقتربت منها واحتضنتها. استندنا نحن الاثنتين على حافة الباب. وضعت ساعدي حول خصرها وذهبنا إلى الشرفة ثم قلت بحنان طبيعي:

مم تخافين؟ لا تقولي علي. أنت تعرفين جيدا أنني قد ورثت عنك كل شيء تقريبا.

ترددت في عينيها أقاصيص قديمة، صداها مكتوم غائر. ثم قالت:

لا أرتاح لقاسم فاروقي.

إنك تعلمين جيدا أنه لطيف الحديث جدا وعوالمه لا تنتهي.

سكتت برهة ثم سألتني:

- هل تحبينه؟

صمت تماما. ربما لأن السؤال يجعلني أفكر وأنا قد قررت ألا أفكر. قررت فقط أن أترك نفسي تفعل ما تشاء. ولكن ها أنا أفكر وأفكر بهوس في كل ما دار بيني وبين قاسم. لا تستطيع مشاعري إلى الآن أن يكون لها اليد العليا حيث إنها كلها مرتبكة. يتكلم عن الفعل وأهميته بين التمتع والإبداع، فالجنة لا عمل فيها... غناء ومتعة.... إبداع بلا نهاية. "الجنة" والتنين الذي يقف على أبوابها يحرس العدد اللانهائي، العدد الذي لن نصل إليه.

فيم تفكرين؟

أرد عليها بتعب حقيقي وأنا أتركها حاملة حقيبتي:

أمي! أفكر في تنانين تحرس الجنة وتنانين أخرى في سبيلها إلى الانقراض.

❖

- ٣ -

(خالد علم)

"ساعة صفا" ....."ساعة صفا" كان صوت أسمهان الساحر يأتي إلى من الطرف الآخر للهاتف، وأنا أكلم قاسم. كان نصف عقلي مع الترديد البديع للكلمة.

نعم كل ما أريده هو "ساعة الصفا" هذه.

(ماذا؟ ماذا قلت؟.سحر الصوت! آه ضبطتك! ما فتأت تؤثر فيك الأشياء...أنت ....أمازلت هنا؟ رُد!)

أتأثر؟! نعم فسحر هذا الصوت قادر على الإيلام.

(إذن مت. هيا هيا. مت. لم يعد أي شيء مستطاع.)

الألم هو ما تبقى، و"ساعة صفا" حلم موجع. قاسم يقول لي "انتظر ماذا أنتظر؟ اللعنة! ألا نفعل كلنا أي شيء سوى الانتظار؟ الإقدام لا قيمة له الآن. التعلق في الهواء. فخ ولا شيء أكثر. العجيب بالفعل أن الموت كذلك ينتفي هنا بصفته كحل.

(تقول "العجيب"! أرأيت، أنا دائما على حق وصواب لا نهاية له. الإنسان كائن عنده القدرة على الاندهاش.)

وإن كان الموت هو أقرب الحلول التي لا تحل شيئا. حل لا يحل شيئا ليس بحل. كل شيء بارد بارد. مع كل طفل يولد تحدث معجزة! باللسخرية!

هل من المعقول أن أستيقظ يوميا أنتظر اللاشيء؟ الحل الذي لا يلوح أبدا. قل لي أنت ماذا أفعل؟ سليمان نفسه لم يجد تحت الشمس أي جديد. نعم مع سليمانِ كان الجو صحوا صافيا. ولكن لا شيء يحدث تحت الشمس. انتظر وتحكم في الجان والريح..... سليمان جديد وتعيس!

(لم لا تكتب رواية ونسميها "حرية سليمان"؟)

المضحك حقا أن سليمان في كل كتب التاريخ لم يكن سوى ملكا على مملكة صغيرة لا قيمة لها بجانب الإمبراطوريات المجاورة.

(إذن فكل الفكر والقوة والإيمان يساوي صفرا. الصفر إياه!)

حسنا! فلنعكس الأمر.... ربما يكون الحل هو الحياة. الحياة ببساطة وبشكل أولي أميبي. ولكن التجربة ثبت فشلها الذريع.

(إنها آخر مرحلة)

صه! لا تتكلم أنت.

يقول قاسم إنه قادم بالحل. يعمل في حياتي كما يصنع في نقده لكتاباتي. يحلل، يفسر، يبرهن. لن أنتظره أكثر. أغلق باب الشقة وأتجول في الشوارع. ألمح هاتفا عموميا. أتصل بالبيت. رنين لا ينقطع. أتخيل شكل منزلي الخاوي ورنين الهاتف يخترق أنحاءه وما من مجيب.

(ولا رد حبيب! كما تشدو أم كلثوم)

البيت خاو وصاحبه مجنون. أملّ سريعا. أعود إلى البيت. سيأتي.

أنظر إلى عقرب الساعة. يبدو للحيظة أن العقرب يدور في اتجاه عكسي، هي ببساطة حركة مركبة، رد الفعل الضئيل لوقوف العقرب اللحظي على هذه الثانية فيتجه إلى عكس مساره. ولكن في بعض الأحيان لا ترى العين سواها فتهتز الثقة الحميمية للزمن وتنكسر إلى عكسها.

(إذا كان الزمن نفسه يرتبك، يقف، يرجع. ثم تجده قد فاتك. ألا يحق لنا أن نعكسه نحن أيضا؟ فلنقل (لح) بدلا من (حل) سيأتي به، لن يفي بشيء.)

لن ننتصر عليه بقلبه. إما أن أكون أنا الأبد السرمدي أو ثبات اللحظة الراهنة. لا حلول أخرى. وكلاهما مستحيل.

(انظر المفارقة هنا..... المستحيل هو القابل للحدوث أيضا لأنه استحال من حال إلى حال.)

إذن فالاستحالة محالة..... "قوانين الفكر كما يقول. أف له! وتبا لقاسم. أما آن للعقل أن يستريح قليلا... أن تتحد الروح والجسد ضده؟ ألتقط الكتاب الذي أرسله لي قاسم. أبدأ في القراءة لا أستطيع. أهم أن ألقي الكتاب على الأرض لكنني ترددت.

(آه. جبان رعديد. مازلت تتردد. ما تزال الكلمات لها معنى عندك. مهما حاولت. ما يسيطر عليك فعلا هو الخوف لا العقل كما تقول.... لماذا لم تلق بالكتاب؟ عيب؟ حرام؟ لا يصح؟؟؟)

نظرت إلي الكتاب في يدي مرة أخرى. أهم أن ألقيه.

(أرأيت؟ ليس لك أي كيان. ستنفذ أمري. أليس كذلك؟ أنت الآن في حيص بيص. إما أن تستمع إلى فتلقى بالكتاب، ولكن أنت أيضا تدرك أن رمي الكتاب لا معنى له، تضعه برفق لن يفرق شيئا..... بهيمي أنت؟؟ مت بغيظك. سيظل عقلك هنا....هناك)

مللت كل هذا، وضعت الكتاب على الطاولة جانبي. نظرت إلي ساعتي. دخلت غرفتي ورتبت حقيبتي. لن أنتظر. ألم ييأس؟ أكثر من ثلاثة أشهر وهو يقول الحل موجود. أنتظر. قبضت على الحقيبة، ووضعتها بجانب باب الشقة. ذهبت إلي المطبخ، فتحت الثلاجة، وأخرجت زجاجة الماء البارد.

(ها! أتصبها فوق رأسك؟ أتهشمها ...؟ لم كل هذا العنف؟؟)

أين هذا العنف الذي تتكلم عنه؟ الماء ماء، والماء في زجاجة، والزجاجة تبرد في الثلاجة. كنت سأشرب فقط.
وضعت الزجاجة وأخرجت زجاجة البيرة. لم أكن أستسيغ طعم هذا النوع....

(أستسيغ أولا أستسيغ؟ هذا هو السؤال.)

كوب بللوري طويل، نصف ماء، نصف بيرة.

(خائب. أيتصرف أحد هكذا؟)

تركت كل شيء. أخذت حقيبتي ونزلت إلى الشارع. نظرت حولي. لم يأت قاسم بعد. لم أتحرك.

(يبدو أنك ستنتظره)

سأذهب إلى العجمي، ثلاثة شهور وهو يقول سيأتي الآن. ركبت سيارتي.

(لن تتحرك. لا تقد السيارة. انتظره.... انتظر)

صحت: "اخرس!" خرس.

استندت على المقعد. أحسست بالحرارة. الوقت غير مناسب للسفر. توقفت سيارة بجانبي. نزل منها قاسم ومعه امرأة. لم يلحظني. أمسكها من ذراعها. نظر إلي أعلى حيث شرفتي، واتجه نحو بوابة المبنى إلا أنها همست له بشيء فاستدار تجاهي. كان يحمل حقيبة سفر صغيرة. اتجه نحو السيارة. لم أنزل منها. ابتسم قاسم ابتسامة مضطربة أعرفها جيدا.

لم يتجه إلى الباب. دار حول السيارة، وفتح الباب. ساعدها أن تضع الحقيبة علي المقعد الخلفي. جلست بجانبي. لم ألتفت إليها. قلت في سري: "هذا شخص ساذج"

أغلق الباب خلفها. اتجه إليّ، وانحنى على زجاج السيارة وقال لي:

حسنا. أنت الآن صاحب الأمر.

أدرت محرك السيارة دون أن أرد، وانطلقت ببطء متفاديا سيارة مسرعة مرت بجانبي.

نظرت إليه وهو يقف في منتصف الطريق ينظر إلينا وهو معكوس على مرآة سيارتي.

❖

(سالومي)

هيروديا كانت على حق. لأول مرة يتملكني هذا الشعور. ما الذي أتى بي هنا؟ أجلس جانب خالد علم في سيارة مسافرة إلى جهة قد تتغير في أيه لحظة. لقد قال لي قاسم إنها العجمي، ولكن من أين يستمد يقينه هذا مع خالد؟ ألم يخطر بباله فعلا أي تغيير في خطط البداية على الأقل؟ البداية التي يقول إنه يعرفها. آه. دوري أنا..... في الكلية تذكرت الكوميديا ديللارتى، أي دور سألعب؟ لقد طاوعت قاسم لأنني لمست جزءا من شطحات جنونه. كما أنني قد أحببته. ولكن أأنصاع هكذا تماما إليه؟ أخمن ما هي اللعبة بالتقريب. لا أظن أن هذا كله جديّ. لكني قد قبلت اللعب. قال إنه اختارني ولكن أنا من تركته يختار.

يقول قاسم إن خالد علم على شفا الجنون رغم عقله الراجح. والله ما مجنون إلا أنت يا قاسم. يقول إن خالد علم قد فقد القدرة على الاستمرار. حسنا! وماذا سأفعل أنا؟

السيارة على الطريق الصحراوي. أمامنا وقت طويل للوصول إلي العجمي. تركنا القاهرة ولم ينطق بحرف حتى الآن. فلنفترض أنها جزء من اللعبة. هل هو مدرك لشيء؟ لا يهم. علي أن أستريح قدر استطاعتي. فلا شيء يخيف حقا. أنا أعرف الكثير عن خالد

علم، أما هو فعلى الأرجح لا يعرف عني الكثير. هذه نقطة قوة لي. عليّ فقط أن أعيش كما قال لي قاسم.

فليطـــُل الطريق كما يحلو له، وليصمت كما يشاء.... يتبخـــر. وإن اختفى فلن أحفل بشيء. عسى أن ينعـــشني الطريـــق وراحـــة امتداده.

أسند ظهري باسترخاء على مقعد السيارة. أرخي كل عـــضلة في جسدي. هدهدة الطريق لجـــسدي المـــستكين الـــوادع ذكرتنـــي باستكانتي في حضن قاسم. كم يمنحني احتواؤه لي أمانا مـــن نـــوع خاص يعز مثيله. عالم دافئ مطمئن. لم أكن أعلم أن له وجودا من قبل.

ضحكت في خيالي مستعيدة ملامساته الناعمة على جسدي. يـــا إلهي ماذا أفعل مع هذا الجالس جواري؟ أنا يجب أن أكون هناك مع قاسم. لماذا أطيعه هكذا وببساطة؟ فليُسحق خالد علم هذا.

اغتاظ من علاقتي بقاسم فاروقي ولكن في الوقت نفسه تعجبني وترويني.

ضحكت مرة أخرى في خيالي. تذكرت شفتيه وهما تدغدغاني خلف أذني. تذكرته وهو يقف أمامي بلا حراك لمدة تزيد عن ربـــع الساعة في وضع واحد لا يتغير رافعا ساقه اليمنى وثانيـــا ركبتـــه، ماداً ذراعه الأيمن، والأيسر في مستوى كتفه. في أول الأمر كنـــت أضحك. كان يبتسم لي ثم يذهب غاضبا ملولا ويتركني إلى المسجل ليخفض صوت الموسيقى قليلا أو حتى يغلقه ولا يقول لي شيئا.

سألته مرة:
أهذه يوجا؟
لا.
ولم يزد.

مرة وجدت نفسي أقلده. لمحت ابتسامة مشجعة في عينيه. فأقف على قدم واحدة رافعة الأخرى ورافعة ذراعي أيضا لأعلى، اليسرى أعلى من اليمنى، وأظل هكذا بلا حركة. ثم أدمنت هذه التسلية. وفي بعض الأحيان كنت آخذ وضعا وكأني انعكاس تام له. الساق المرفوعة، مستوى الذراعين، حركة اليدين، ميل الجذع، وانحناءة الرأس. وفي أوقات أخرى كنت أثبت في وضع مخالف له. عندما قلت له:

لا أفهم.

ابتسم وقال:

لا أريدك أن تفهمي..... لا! لا! لا أهمية لما أريد أنا. لكن كل ما أستطيع أن أقول هو اشعري، حسي. لا تفهمي....
ثم أضاف بنبرة يغلب عليها التردد:
علّنا نفهم حين نشعر.

في يوم آخر أراني عدة صور في كتاب. وقال لي هذا كتاب عن العشق الهندي "الكاماسوترا" عالم كامل مليء بتماثيل غاية في الجمال مكرسة لإله العشق. تصفحنا الكتاب معا.

قال لي وهو يضحك:

ها، عليك بانتقاء إحداها.
قاسم ! أنت تمزح!
لا. اختاري واحدة وسيكون وضعها هو وضعنا اليوم.

أعجبتني واحدة وأشرت إليها. صفق بيديه قائلا:
عظيم، هيا.

ضغط على زر التحكم من بعد، وانسابت الموسيقى. وقفت أمامه متخذة وضعا شبيها بوضع فتاة التمثال. نظر إلي من بعيد نظرة اعتراض. وضع الكتاب أمامي.

انظري إلى أدق التفاصيل.

دار وراءي واحتضنني كما يحتضن رجل التمثال فتاته. لف ذراعه اليمنى حول ذراعي اليمنى المرفوعة لأعلى ولف ذراعه اليسرى حول خصري ووضع طرف أصابعه على صدري، ارتجفت للحظة، لم يعرني اهتماما وواصل تقليد التمثال. وضع ساقه اليسرى أمام ساقي اليسرى، واتكأت أنا بقدمي اليمنى وراء قدمه اليمنى. لم يكن وضعا مريحا. تململت. قال آمرا:

انتظري قليلا. انس التعب. فقط اشعري بجسدينا والموسيقى. لا تهتزي وتناسي جسدي أنا، فقط جسدك.

تباعد إحساسي عن أي شيء فعلا. لم يبق سوى الموسيقى والموسيقى والموسيقى. ثم شيء ما وهو يتصاعد ويتواجد.... كانت رائحته الخاصة. لم أدر متى قلت له:
- تعجبني تلك الرائحة.

بعد فترة أحسست به ينفك منى ويبتعد. فسألته:

كم مكثنا؟

ضحك وقال:

الروائح والموسيقى متقاربتان كثيرا. توجد الروائح البسيطة الطبيعية مثل الموسيقى البدائية كما يتساوى الهارموني والبارفـــان. كل مركب للاستمتاع في لحظة واحدة إلى أقصى حد.

ثم مال على وقبلني علي خدي وقال:

وأنت أيضا رائحتك رائعة.

تـــرى هل يحس هذا الخالد العلم أو العدم بأي نسيم أو روائح؟

(قاسم فاروقي)

لا معنى الآن للتدقيق في جدية أو صدق ما يحدث. ولا أهمية حقيقية لما سوف يحدث نتيجة أفعالنا هذه. بنفسي أوصلتها إليه. فتحت باب السيارة، وأجلستها بجانبه. هل ينتهي عملي هنا؟

أتركها لقانون نيوتن للحركة. نعم، كل الأشياء تميل إما إلى السكون أو إلى الحركة. والجسم يكون في حالة جمود أو "كسل بحيث لا يغير من حالته.

ها أنا ذا أدفعه بها. أخبط هذا الـ"خالد علم الساكن الكسل. حركتي الواضحة لم تتعدَ إجلاسها في السيارة بجواره. لكن أليس هذا إجحاف لها ولي أيضا؟ أهي مجرد دفعة لآخر؟ أعرف أنها أخطر من هذا. لكن ربما كانت أصول القانون نفسه تستدعي هذا! هي تدرك هذا جيدا وتعيه.

هل يندفع هذا الساكن بهذه الحركة إلى مالا نهاية؟ لا شيء يوقفه سوى حركة أخرى.... هل مازال يحتفظ بالفراغ حوله أم أن يقين الاحتكاكات اليومية تهيئ له الوقوف مرة أخرى؟

سألتني:

وما الداعي؟

بالله كيف أجيبها؟ فلا يقين حقيقي لدي بحدوث أي شيء. فقط رغبة قاتلة مغرية معذبة للحرية والحياة.

وتعيد السؤال:

وما الداعي؟

تركتها وذهبت إلى المكتبة وانتقيت كتابا ورجعت إليها وقلت:

استمعي إلي ما كتب بروكليس آخر فلاسفة اليونان الكبار:

وقرأت لها:

"يقال إن الذين أظهروا الأعداد غير الجذرية من عالم الكتمان إلى الضوء قد هلكوا في سفينة غارقة....لأن ما لا يمكن التعبير عنه والذي لا شكل له يحتاج إلى الكتمان، فالذين نزعوا الغطاء ولمسوا هذه الصورة تحطموا في الحال وسيبقون إلى الأبد عرضة للأمواج الأبدية.

التفت إليها وسألتها:

هل أنت مستعدة لمساعدتي؟ هل أنت مستعدة لأمواج أبدية الغرق؟

التفتت إلي برقة محركة رأسها حركة دائرية ناعمة. كانت عيناها متسمتان بنوع رائع من الاندهاش الرائق، الاندهاش المدرك أن حركة البحيرة لابد لها في وقت ما أن تسكن أملا في هدوء موعود. ثم قالت بابتسامة بعيدة تائهة:

ربما علي القبول لأجلي أنا، لنفسي. فلا شيء قابل حقيقة للتفسير. ولست مجبرة على شيء. ورغم أنني لا أسعى مثلك لحل لغز ما أو الوصول إلى أعداد غير جذرية ولا يهمني أن أعرف

عددا لا نهائيا لا عدد بعده كما تقول، إلا إني أشعر فعلا أن معرفة اللانهائي لا يليق إلا بالإله وهذا يُحلنا من الجبر في الأفعال.

ابتسمت وهي تتكلم هكذا وتذكرت اعتراضها على رأي الفيثاغورثيين في أحاديث سابقة بيننا. اقتربت منها ووقفت وراء الأريكة التي تجلس عليها. لمست رأسها ثم مسدتِ لها شعرها. أرجعت جسدها وسندتْ ظهرها على الأريكة. كنتُ مستمتعا بملمس شعرها بين أصابع يدي وانسيابه الممتع وجريان الشعيرات على راحة يدي. قسّمت شعرها إلى ثلاث خصلات كبيرة وببطء بدأت أضفره لها، وقبل أن أصل لنهاية الضفيرة قالت:

كيف تضفر لي شعري وأنت تريده منطلقا كنار حارقة؟

أكملت عمل الضفيرة وأجبتها:

أنت تلميذة مجيدة.

أكره هذه الضفيرة فكرت منذ أن بدأت في صنعها أن عليّ أن أرفض. إني غير مجبرة عليها. وأنت لن ترفض أن تترك شعري سائبا، وأن الضفيرة لا تناسبني ولا تناسبك أنت أيضا

وإني حرة، وإني حرة مرة أخرى ولم أنطق بشيء!

ها أنت تنطقين.

أين حريتي أنا إذن؟

معي؟

لا. مع نفسي. لم أتركك تفعل هذا؟ لم أتركك دائما منذ أن عرفتك تفعل ما تريد؟

أزحت الضفيرة جانبا وبانت الشعيرات الدقيقة الرائعة على رقبتها، قبلتها وقلت لها:

هزت كتفها ولم أر ما اعتمل على وجهها، ثم قالت بنبرة أقرب إلى السخرية:

ألم تسمع عن انهيار نظرية العلة؟ وأنه لا ارتباط الآن بين علة ومعلول؟

أجبتها حزينا:

ألم أقل لك إنك تلميذة نجيبة فعلا.

التفتت إليّ وأمسكت بيدي وجذبتني لأجلس بجوارها ووضعت رأسها على صدري ثم بعد فترة صمت قالت:

هل يحق لي أن أسألك ما الذي تأمله من كل هذا وتجيبني إجابة بسيطة وسلسة؟

تشابكت أصابع يدينا وضغطت برفق على يدي. تمنيت أن يقف قلبي الآن، أن ينتهي كل شيء. أن تصمت. أن تشملنا رحمة ما. ثم قلت:

ماذا تقصدين بإجابة بسيطة سلسة؟

لا تكلمني بقانون علمي أو نظرية فلسفية. يعجبني كلامك إلى أقصى حد، وأحس أني أتواجد به يوما بعد يوم. ينعشني ويحييني. ولن أقول لك أريد أن أفهم، لا، أريد فقط أن أعرف.

وهل المعرفة لا تؤدي إلى الفهم؟

أرجوك دعنا نناقش هذا في وقت لاحق، فقط قل لي، لم تجهز كل هذا؟

تركت يدها. قمت ووقفت أمامها. وقبل أن أتكلم، ذهبت إلى غرفتي وأخذت ألبوما للصور. أخرجت صورة قديمة لخالد. أعطيتها إياها قائلا:

تأملي هذه الصورة.

نظرت إليها، ثم بعد برهة رفعت عينيها عنها ونظـرت إلـيّ صامتة.

انظري إلى هاتين العينين. إلى الروح داخلهما.

ثم أعطيتها صورة حديثة له.

تأملي هذه الآن.

ثم أكملت:

إن خالد علم لديه قدرة عالية جدا على التدمير، لكن لكونه شخصا مهذبا، سيدا حقيقيا، فهو يبدأ دائما بنفسه. ربما لأنه لم يعـد يؤمن بوجود الآخرين، فوجوده نفسه يزعجه لأنه بالنسبة إليه غيـر يقيني، وجود تماسيّ على الأكثر، أو وجود حرفي مخادع وزائـف. أو هو يكره وجوده لأنه يشعره بالآخرين الذين لا يؤمن بوجودهم، غير أنه يخاف أن يصيبهم بكل الطاقة المدمرة داخله، ولهـذا فهـو يسعده أن يبدأ بنفسه دائما، يهدها جزءا بجزء. انظري الفرق بـين الصورتين. الأولى فيها بدايات عدم السيطرة، لا أقول جنون، فقـط شيء ما ينفلت، عالم ينبثق... وأنا لا أثق في هذا العالم.

فاجأتني بقيامها الحاد وبنبرة غيظ قالت:

وأنت الإله المنقذ أليس كذلك؟

أمسكتها من ساعدها ضاغطا عليه وقلت لها:

– لا! ولا أدري لماذا أفعل كل هذا، ولا أمل لدي في شـيء. ربما أنت أنت السبب. فكل هذا تحقق منذ أن رأيتك وقلت علـك

تكونين.... ولم أعرف الباقي، لم أعرف كيف أكمل الجملة. ولم يهمني ماذا كنت أرى أو أتوهم أن تكوني.

شدّت ساعدها مني وقالت:
وماذا لو رفضت الآن هذا كله؟
لا يهم!

وجلست مقهقها وأنا أقولُ:
هذا يُرجعنا مجددا لمبدأ "عدم اليقين وليحيا هايزنبرج.

هاهي تجلس بجانب خالد علم في سيارته.....وهي منطلقة كإلكترون واحد أحدد أنا مصيره. منطلقة ببساطة من منطق الفوضى والعماء وكل هذا العالم في انتظارها.

حقا قد يؤدي النظام إلى التقدم خطوة بخطوة، لا يحيد عنها، وكل عالم يجرُ وراءه العالم كله، والدرب مُسار عليه بلا توقف، وما كان سيكتشف سيُكتشف. أما الفوضى فمنها الطفرات الرائعة الحية، الجديرة فعلا بعظمة الخلق الحقيقي بعدها.

إذن أنا لا أهم، فأنا كالعالم وما سوف أكتشفه أن لم يكن تأكيدا للنظرية فهو مجرد البداية.

أما هي، فهي الفوضى بكل روعتها وكل ما يتأتى منها من فن مبدع وتجليات تقترب حقا من عبقريات الخلق. فسوف تؤدي هي

إلى عالم فارابي مفعم بالسعادة، مترع بالنشوة، أو
إلى ضياع تام.

أكرر: فليحيا هايزنبرج وعدم يقينه!

❖

- ٦ -

(خالد علم)

تجلس جواري. ألمح ثلثي وجهها. تستريح بعفوية تامة، مسترخية على المقعد الجانبي، متآلفة كلية مع كيانها.

(هه؟ أتعجبك؟ ها؟ قل قل أتعجبك؟)

مضى نصف الطريق ولم تنطق بأية كلمة.

(غَلَبتك. أتظن أنك وحدك من لا يحفل بأحد؟ ها هي تكاد تلتصق بك وهي في كون آخر.....لذيذ)

طبعا مهيأة. من من؟ منه طبعا.

(ماذا في هذا؟ بذمتك، ألا تتفق معي أنها ذات حسن خاص، وحركاتها، ألا تدل على حريتها الأصيلة؟)

ولو! ما معنى هذا أيها الفقيه؟

(إنها تؤكد وجودها بدونك. تتحدى صلف وحدانيتك)

ابتسم في سخرية. ألمح اضطرابا خفيفا يعتريها. إذن هي ليست منعزلة كما تبدو. فلقد استشعرت شيئا داخلي.

(أرأيت ؟).

ماذا؟ كل ما في الأمر أنها – أيا كانت – هنا- معي – ورغما عن أنفك- أنت – فيما يبدو- وهذا شيء واضح.

(واضح! هأهأ أنت تقول واضح... منذ متى تتكلم عن الوضوح؟ ألست أنت صاحب النظريات، والكلام الذي لا يقال ومدلول المعاني وإلى آخره إلى آخره. قل بالله عليك ألا تثير فيك أي خلجة؟ آ... لا تكذب عليّ. ألا ألمح نظرة اهتمام أو ربما فضول... هه؟!)

ماذا تقول أيها المغفل؟ من الغباء أن تتكلم عن فضول وهي بحوزتي. متوهم؟ سترى.

الطريق الصحراوي. استراحة منتصف المسافة. التفت إليها وقلت:

– أنا خالد علم.

أدارت وجهها نحوي وأجابت بنبرة حيادية:

– أعرف.

ثم استدارت تتابع مشاهد الطريق.

(كبسة! صديق لنا في وضع حرج.)

أنت ساذج كعادتك. هذه حيلة قديمة قدم الناس أنفسهم. لكن ربما كان قاسم مصيبا. أأمل هذا؟ فهي آخر لعبة. وما المانع؟
سخر مني دون أن يتكلم واختفى.

صامتة. تؤمن بالسكوت. فلننتظر وسنرى. لكن على أن أكون بارد الحياد.

❖

(سالومي)

مثلما بدأنا وصلنا الفيلا، غريبين تماما. اسمه مكتوب على بابها الخارجي بحروف واضحة. لستُ مهيأة لأي شيء الآن. نزل من السيارة ودار حولها وفتح لي الباب قائلا:

تفضلي.

ابتسمتُ وقلت:

الحقائب.

لم يدعني أحمل حقيبتي. حمل حقيبتي وحقيبته معا. كان الهواء منعشا بنسماته المتلاحقة قصيرة العمر. كدتُ أحسُ أني أحب هذا الخالد. يا للعجب!

صعدت إلى الدور العلوي وفتحت النافذة. غمرني البحر بروعته. هيرودِيا أين أنت؟ قد حكت لي أمي أنها من الإسكندرية أصلا. تذكرتُ صورة لها هي وأبي على شاطئ البحر. أكانا في شهر العسل؟ أتذكر طيران طرف فستانها، ويد أبي على القبعة القش التي يضعها على رأسه، والاثنان يضحكان من شدة هبوب الهواء.

أحسست به يقف ورائي. التفت إليه وتأملته. لا، إنه ليس مخيفا كما أنه ليس تعسا كما صور لي قاسم. ابتسمت فقال لي في ارتباك وخجل:

أنا لم أعرف اسمك.

اندهشت.

ألم يكلمك قاسم عني؟

لا. كل ما قاله لي اليوم صباحا: انتظر سآتي إليك.

ولم انتظرته؟

ضحك متراجعا:

اسمحي لي. لا أستطيع أن أتكلم معك عن شيء يخصني. كنت مكتئبا هذا الصباح.

هذا الصباح فقط؟

فقال بعد برهة:

آسف لأني لم أتحدث معك طوال فترة الرحلة.

لم أكن أريدك أن تتحدث..... ثم ألم تكن مستمتعا بالقيادة؟

آه... السرعة. عندما كنت صغيرا كانت الأشياء التي تتراءى لي في مرآة سيارة أبي وهي تجري فارة هاربة تسعدني إلى أقصى حد.

نعم. لقد لاحظت أنك تنظر كثيرا في المرآة العاكسة.

هذا رغم أنك كنت تبدين في عالم آخر..... نعم، يعجبني شكل الطريق وهو معكوس راحل.

أجبته:

أما أنا فأحب النظر في المرايا التي لا تعكس الأشياء المتحركة. أكره مرايا السيارات وأعشق مرايا البيوت.

لتتأملي نفسك؟

لا. أرى الأشياء الثابتة فقط. فحتى أنا أتحرك. أنظر دائما من ركن لا أنعكس منه عليها. أحيانا أشعر أن الوجوه تجرح المرآة..... لكن.....

صمت فقال:

يوجد عندي هنا مرآة كبيرة
سأشاهدها فيما بعد.

استدار وجلس على مقعده. بقى ينظر إلى الأرض. ثم رفع رأسه ونظر إليّ، عاد إلى ما كان عليه. قال بلسان بطئ ونبرة ملولة:

لم أتيت؟

ليس من المعقول أن أقول له إني لا أعرف بالفعل. قاسم حذرني منه ومن تقلباته. قال لي لا تجعليه يخدعك. لا تتعاملي معه على أنه شخصان بل فقط هو وهو مرة أخرى.

قبل أن أجيبه، قال بحزن:

اصدقيني القول.

جلست أمامه وقلت:

- أعرف عنك أشياء كثيرة.... منها أنك لم تعد تؤمن بشيء.

الإيمان هبة لا ينالها سوى من حُن عليهم.

اسمع. أنا حقا لا أعرف لماذا أنا هنا. قلت لقاسم منذ قليل أني ربما أكون هنا من أجلي أنا. ولا يهمني لماذا اختارني قاسم ولا أعرف ما بداخله وماذا خطط. ربما هي محاولة أخيرة منه لإنقاذ صديق عزيز عليه.

قال ساخرا بابتسامة موجعة:

وهل ترين في نفسك شيئا يؤهلك لهذا القرف الذي تسميه إنقاذا ولمن؟ قاسم مختل، ولم يقل لي عنك شيئا.

انتابتني فجأة رغبة لحوح في البكاء. لم أبك. أحسست بتعاسة لا حدود لها. بُطلان كامل. لم نعذب أنفسنا هكذا؟ لابد أن الحياة أبسط وأسلس من كل هذا، أكثر وضوحا. لكن كيف تكون أكثر وضوحا وأنا لست متأكدة بعد من علاقتي بقاسم. هل أحبه فعلا؟ ولذلك أطيعه وإلي إي حد؟ يا للتعاسة!

قام من مقعده وجلس جانبي، ووضع ساعده خلف كتفي وقال:

ما نحياه ليس فيه للأطفال مكان يُرتجى. وأنا لا سلطان لي عليك وأنا لا أستسيغ وجودك معي هنا. لا يهمني قاسم فاروقي ولاتهمني أفكاره ومفاهيمه عني أو عنك، أو حتى عن نفسه. ثم أساسا أنا لا يهمني شيء على الإطلاق.

انتفض قائما فجأة ثم أكمل بحدة:

ولكنك ركبت السيارة معي. دون أن تعرفي إلى أين سنذهب. ماذا أمامنا في الحقيقة؟ ألم يقل لك أستاذك العظيم أن الركوب بجواري قد يؤدي إلى كارثة. ألا تخافين الموت؟

قلت بإجهاد:

لقد وصلنا للتو، وليس من المعقول أن يكون هذا حوارنـــا الأول. دعني أفتح كل النوافذ وأستريح. دعنا نرجع للصمت الـــذي كان بيننا.

رد بصوت عال مُزمّم

الصمت الآنَ صار أصعب مما مضى يا عزيزتي!

تركني ومضى وهو يقول دون أن يستدير

– لم أعرف اسمك حتى الآن.

قلت ساهمة:

– سالومي ...سالومي.

– ٨ –

(خالد علم)

مر أسبوعان اختفى فيهما قاسم تماما.

(يواجهك هذه المرة بجد)

لا سبيل إلى المراوغة. نعم، عندك حق. يواجهني بأكثر الطرق طبيعية.

(وأقصرها أيضا.)

ربما يسميها الآن الـ "هي"، الحد الأوسط. سئمت كلامه وأوحشتني طريقته في التعبير.
(قم. قم يا أخي. راقبها. ألا تعرف أنها تسبح الآن في البحر. هيا. ألا يعذبك في الليل ثقل الرؤى التي لا تحتمل؟ ألا تستغرق أحيانا في محاولات اقتناص صوت تنفسها عبر حوائط حقيقية وأخرى وهمية؟ هيا اعترف.)

أنت لا تفهم، ومأفون كعادتك. وفكرك ضيق ومحصور. ما يأسرني حقيقة هو السكون، وكل الأصوات التي من الممكن أن

نسمع لو أصغينا بكامل كياننا. نستطيع أن نصل في النهايـــة إلـــي نبض الكون نفسه.

(حسنا، حسنا. قم قل لها هذا الكلام، لا تقوله لي. أنا لا أفهـــم هذه الأشياء)

أنت لا تهمني، وهي أيضا.

(هكذا! أنا لا أهمك! على العموم، أنا مازلـــت هنـــا. مازلـــت أعيش وليس لك سواي)

ولم لا تقول العكس. لو انتهيت أنا لانتهيت أنت...ها. أنـــت لا تجيب الآن. تصمت... تختفي فليكن!

أذهبُ إلي النافذة. أشاهدها بلباس بحر جريء. جسدها جميـــل بل شهي. اتساقه مع نفسه يزيده اتساقا مع ما حوله.

أسبوعان تكمل فيهما ما بدأه قاسم فاروقي. إنها تتصرف دون شك باستمتاع خالص. أجازة كما تقول. لم تحك لي الكثير عـــن علاقتها بقاسم، لكني أعتقد أنها تحبه. لكم هو عجيـــب! دائمـــا مـــا يفسر، يشرح، يحلل، ودائما ما يجد من يستمع وينبهر.

أخذت كتابا من المكتبة وذهبت إلى الـــشاطئ. جلـــست تحـــت الشمسية في انتظار خروج الحورية من البحر. بعد قليل، جـــاءت جميلة، رشيقة، وفتية. فكرت في أبيها الذي أســـماها هـــذا الاســـم. أخذت المنشفة لتجفف شعرها. التفتت إلى وقالت:

أرى أنكَ مازلت تقرأ. قال لي قاسم أنك قد بعت كل كتبك منذ فترة وأنه أُصيب بصدمة عند رؤيته الرفوف العارية على حوائط شقتك ومعرفته بهذا الخبر.

قلتُ دون أن أرفع عيني عن الكتاب:

نعم هذا ما حدث.

هل كانت مكتبتك عديدة الكتب؟

أظن هذا.

لم بعتها؟

حتى لا أحرقها.

(تتصرف في الموضوع كأنك بطل. لماذا لم تحرقها بجد؟)

أهملته.

تصرفاتك زائدة عن الحد.

أترين هذا؟

جلست بجواري. أخذت الكتاب من يدي. كانت برودة أصابعها ممتعة ومغرية. قلبت الكتاب وقرأت عنوانه.

كيف أفسر للآخرين الأمر؟ كيف يتفهمون؟ بيع المكتبة ليس مفهوما لقاسم وطبعا للآخرين. النقود؟! فليكن.

(حتى قاسم يا رجل!)

كيف يفهمون أن بيع كل كتب المكتبة مذلة؟ فليست المسألة مجرد إبادة للكتب برميها من النافذة، بل إذلال وتقليل من قيمتها. كعاهرة أخذت أتعابها بعد ليلة شاقة.

(حمراء....هه.)

ثم أأقول لسالومي إن ما كنت أفعله حتى الأمس القريب لم يعد مهما؟ فلتباع الكتب أو تشترى.

كان علي أن أرد:
أكتفي الآن بالموسيقى.

(الموسيقى وأنا.....لا تنسى. طالما كانت الموسيقى كنا)
خالد، لم تعذب نفسك هكذا؟

نظرت إليها. ما أراه في عينيها لا يُفهم.

(حاول يا أخي)
ابتسمت وقالت:
الموضوع كله لا يستحق!

أحسست أني ألينُ قلت لها:
– نعم أعرف ذلك. وأعرف أيضا أن لا قيمة حقيقية لأي شيء. انظري ماذا كنت أقرأ. الكتاب يتكلم عن الفراغ. الفراغ أكبر من كل شيء.
– أي تلميذ في إعدادي يعرف هذا.

– لكن الفراغ..... نحن لا نوجد بالفعل. هذا كـــلام علمـــي صادق، كما إنه جاف. نحن مساحات من الفراغ تمـــلأ جـــسيمات الذرات التي يتشكل منها الكون في آخر الأمر. الفراغ أكبر من أي شيء، أو هو كل شيء ولا شيء.

أخذت يدي بين يديها وقالت:

– لا يوجد شيء!؟ ولكن ألا تحس بهذا؟ ألا تشعر بجسدي؟ ألا يكفي؟

أنا يكفيني نفسي.

يا سيدي فهمنا.... نعم، والله فهمنا هذا.

لا يوجد خلق واحد له أدنى ضرورة.

ألا ترى في إبداعنا نحن أية ضرورة؟

(طول عمري أقول أنك حمار. ألا ترى أنها تـــستحق الخلـــق؟ هدية لك يا أخي. حمار وأيضا لا تقدر الجمال)

ربما لا يوجد ضرورة حقة لأي شيء.

ولا للمعرفة؟

قاسم فاروقي هو الذي أوحي إليك بهذا. أنا أعرف أفكاره. هو يظن أن المعرفة تجعلنا قادرين. لكن القدرة درجة غير المعرفة وطالما نحن لا نملكها فقل على المعرفة السلام.

لكن المعرفة تجعلنا على الأقل أقرب للحقيقة.

واهمة. آدم عرف الأسماء كلها ولكنه سقط مع ذلك. سقط. لأنه لو كان عنده المعرفة والقدرة لما فرق عن خالقه شيئا. لقد رأف الله به تماما.

- تقولين المعرفة! هل تعرفينني؟ هل تعرفين قاسم؟

أعرف نفسي على الأقل.
هكذا؟!

غاظتني.

(ألم أقل لك أنت مازلت تعيش. الإنسان يا صديقي طالما اغتاظ فمازال يعيش. وأنا أغتاظ إذن أنا موجود.....يا سلام! أي فلسفة!)
- تعرفين نفسك.
أكملت تجفيف شعرها وجسمها.

[تذكرت صوت قاسم في آخر مكالمة هاتفية بيننا وهو يقول:
هناك فرق بين الوقوف أمام العالم والوقوف في مواجهته.
المشكلة أني تـــعب يا قاسم. يوما ما كنت أحس أني قـــادر على المواجهة ثم انسحبت ووقفت مجردا أمامه، أدمره بإقناع نفسي إني أنا الذي خلقته حتى أرتاح من ثقله الذي يجثم علي... أرتـــاح من كتمه لأنفاسي.
إنك تعلم جيدا أنك تنكمش. من غير المعقـــول أن تعـــيش هكذا.
ألا ترى أنه لا يوجد حل كما قلت لك. فخ كبير، شـــــرك. مشكلتك يا قاسم...
قاطعني:
لا يوجد عندي مشكلة.

قهقهت بصفاء وقلت:

– تمتعني تماما ودائما. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يجعلني أشعر أني أتمتع بالحياة. ربما لأني أراقبك كما أراقب نفسي، كأنك أنت تأكيدي. نختلف ولكنك تمتعني وأنت تفعل ما يجب أن أفعل. أنا أكتفي بالفكر، بالفرجة، بالمشاهدة، أنت تتكر كل هذا، ولكنك تحاول. الخوف قد يكون.... لكن ألا تقول لي إنك ربما وجدت الحل؟]

ها هو الحل، حله، جالسا شبه عارٍ أمامي. أتوقف أمام جمال الانسياب السلس لكتفيها. مددت يدي أستشعر ملامسة انحناء جيدها. لم تلتفت إليّ. همست:

سالومي.

استدارت ونظرت إلي. في عينيها رغبة خافية تتوارى. أكملت:

هيا بنا.

جذبتها واتجهنا إلى الفيلا. تركتني وقالت ببساطة:

سآخذ حماما.

واختفت.

وضعت اسطوانة موسيقى وأدرتها. جلست أكمل القراءة في كتابي، غير أن صوت الموسيقى شتتني. حاولت أن أعاود القراءة، تلوت بصوت عالٍ: الانقراض...الانقراض"، ثم نحيت الكتاب

جانبا وذهبت لأطرق باب الحمام. لم تجب. أعدت الطرق مناديا في همس:

سالومي!

سكتت المياه المندفعة وسألت:

أتنادي؟

قلت لها:

هل أستطيع الدخول؟

لم ترد. أدرت المقبض. لم أسمع اعتراضا. فتحت الباب، وجدتها تتدثر بفوطة كبيرة حول جسدها. اقتربت منها. لم تتحرك، لمحت عضلات رقبتها وكتفها ترتعش رعشة خفيفة. أحطها بذراعي ملصقا جسدي بها. أحسست بالمياه تبلل قميصي. أراحت رأسها على كتفي. قبلت كتفها. كانت طلاوة حسنها وطراوتها المنعشة تشع بهجة كسول مشتهاة.

رفعتها من الأرض وحملتها إلى غرفة نومي وأنزلتها برقة على الفراش. انفلتت الفوطة من حولها. وها هي تتجلى في تمام عريها الخاص. كانت بشرتها تكتسب ببطء لونا ورديا محببا، وبدأت أنفاسها تتهدج. مسدت شعري بيدها فلثمتها مرة أخرى وراء أذنها. أحسست بالتواء ذراعي تحتها، سحبتها برفق وألقيت بجسدي جانبها. اعتدلت نصف متكئة. أغمضت عيني. تركتها تعبث برموشي وشعرت بملمس شعرها على جبهتي وأنفي.

قلت لها وأنا مازلت مغمض العينين:

– أتعرفين أن نسبة انقراض الأنواع على مدى تاريخ الحياة هي ٩٩,٩ في المائة.

توقفت قليلا ثم قالت:
كنتُ أعتقد أن هذا الأمر لا يهمك في شيء، وأظن أنـــه لا يهمني أنا أيضا.

فتحت عيني ونظرت إليها وتنامى إلى أذني صوت الموســيقى الآتي من الغرفة الأخرى. أحسست أن عينيها توشكان أن تــدمعا، فقلت:

لماذا أتيت ؟

قالت بهدوء:

لأجلكَ.

ابتسمتُ بسخرية واعتدلت قائما ثم ذهبت إلى المقعــد المقابــل للفراش وجلستُ عليه.

لا. لقد جئت لأجله هو.

أرحت ظهري على المقعد. تأملتها وهي عارية على الفــراش. مازال تناسق جسدها له السطوة الكبرى. فكرتُ في قاسم وهو يفكر في جسدها. أعرف أنه يقدر روعة تلك الانحناءات الناعمة والغياب الكامل لقسوة الحدة.

سالومي. ما أبــشع أن يتنــازل الإنــسان عــن احتياجــه للآخرين. إني أغبط الذين يحتاجون الذين...

قاطعتني بصبر:

- ما دمت حيا فأنت تحتاج. تُرى ما سبب كلامك هذا الآن؟

سالومي. إني أمر بمرحلة مرعبة حقا. ورعبها الأصلي أني لم أعد أتمتع بالحزن الحقيقي.

قال قاسم لي إنك كتبت له يوما (إن الخلق هو التحرك من العدم إلى الاحتياج)

أجبت:

مازال قاسم كما هو. أقال لكِ هذا الكلام عني؟ نعم. ربما هذا ما يرعبني بالفعل. وبما أني لستُ عدما ولا أستطيع أن أكونه، فأنا أحتاج، ولكم أكره هذا الإحساس، لذلك فأنا لا أعيشه لأني أرفضه. لكن هذا لا يريح. والعكس. انظري إلى نفسك وإلى قاسم، ما تفعلونه يدل على الاستمرار.... احتياج.

قالت يائسة:

وأنت من تظن نفسك؟ إنسان أم إله؟

رددت بحدة:

نعم. انظري إلى جسدك في فراشي. ماذا تسمين هذا؟

قامت بغضب مكتوم وقالت:

كفى! لن أستمر أكثر. فلن ألعب لعبة قديمة. فلست غانية أمام مثقفٍ في فراش بارد.

فكرتُ :هذا هو الفرق بين خلق عالم جديد كامل وبين تكرار الحكايات إلى مالا نهاية.

أخذت الفوطة ولفتها حول نفسها واتجهت إلى غرفتها وقبل أن تخرج قالت بسخرية مقابلة لسخريتي:

أنت تطلب خلاصا فرديا وهذا لا يهم أحدا.

لم أرد فأكملت:

أما ما يأمله قاسم فهو خلاص لنا جميعا.

(اللعنة عليك وعليه)

تركته "هو يرد عليها. أما أنا فبقيت مستلقيا على المقعد شاعرا بملابسي المبتلة حتى غرقت في النوم، وعندما استيقظت لم أجدها في البيت.

(شاطر وفالح! خلاصٌ فرديّ تقول لك حتى هي بلهاء
لا يوجد سوى هذا الخلاص الفردي)

تتكلم عن قاسم فاروقي وخلاصه الجمعي تحبه.

❖

- ٩ -

(سالومي)

كرهت نفسي وأنا عارية أمامه، حالة من القــرف والغثيــان. غضب مفعم، ليس منه، رغم محاولتــه للتقــرب منــي إلا أن مــا ضايقني هو ما يدور في عمق مشاعري أنا. هذا التهــيج الجــسدي الذي أحسه وأنا بجانبه، قبلته وأنا أفكر في قاسم. أربكتني مشاعري تماما مع خالد علم.

طوال الأسابيع السابقة أحسست أنه لطيف المعــشر وخفيــف الروح، لكنه بارد، ينقصه شيء ما. ربما الحياة ــ كما يقول هــو. غير أنه عندما ينفعل يصبح مشبعا ومُشبَّعا بما يقول. تركته راقــدا يستمع إلى موسيقاه.

راقبته من قبل وهو يستمع إلى الموسيقى التي ربما تكون هي المؤثر الوحيد الذي يبعث فيه بشيء أشبه بالحياة. هو يمثل الحيــاة وعندما يمثلها، يمثلها جيدا. لكنه دائما منفصل كما الممثلين الذين لا ينسون، حتى في فورة اندماجهم أنهم أمام جمهور، ليس لإبهار هذا الجمهور ولكن فقط للسيطرة على النفس.

تركت الفيلا بلا هدف. قابلتني سماء صافية ونجــوم منثــورة. أراحني هذا. هناك حياة أخرى! نجوم وكواكب تومض حتى ولــو

عن بعد. هناك نسيم! هناك عالم كامل غيره، عداه هو وقاسم فاروقي. نعم! ثم هناك طبعا ...أنا!

ربما يتشكك في وجودي. غير مستريح لوجود كائن يملك حياة بجانبه. يتوجس من قاسم. عندما راقبته وهو يهتز تلك الهزة الخفيفة للأمام والخلف واليدين معقودتين على الصدر بشدة كأنهما تحميانه أو ربما يحتضن نفسه، عيناه شبه مغمضتين، جسده متقلص على نفسه، ترجيع لندب النائحات. الحزن عنده خاف، بلا صوت وبحركة رتيبة تنتفي آليتها بعمق هذا الحزن. كأن المشاعر الحقيقية هذه قابلة – إن لاحت – أن تفوض عالما يحاول جاهدا الإمساك به.

الغريب أنه يقول إنه لا يحتاج لأحد! وهو حزين لهذا؟! مسكين جدا.

اتجهت إلى السنترال. طلبت قاسم. لم يرد. تركت له رسالة:

قاسم! أين أنت؟ لماذا لم تأت؟ سأعود.

قطعت الخط. فكرت أن أتصل بأمي. لم أتصل بها منذ أن جئت إلى هنا. قلت لها إن السفر سيطول والعمل سيكون مرهقا ولن يكون عندي وقت للهواتف. خفت أن أتصل بها، قد يفضحني صوتي، حالتي التي لا أعرف لها تفسيرا.

تمشيت قليلا ثم ركبت سيارة أجرة إلى الإسكندرية. قد أرجع القاهرة. نزلت محطة الرمل. تمشيت قليلا في شارع صفية زغلول. رأيت إعلان فيلم في سينما مترو. دخلت أشاهد الفيلم. خرجت من منتصفه. أكملت سيري. سار خلفي شاب سخيف، جعل يصفر، تهادت خطوتي. تصور أني أشجعه، اقترب أكثر، تباطأت أكثر. اقترب وكاد يلامسني. التفت إليه وصرخت في وجهه بكل علو صوتي:

ماذا؟ ماذا تريد؟

ظهر الرعب والمباغتة على وجهه وانفلت هاربا قبل أن يتجمع المارة. توقفت قليلا. قررت أن أبيت الليلة في أحد فنـــادق وســـط البلد.

اتصلت مرة أخرى بقاسم، لم أجده أيضا، فقط مسجل الرسائل:

قاسم! ما تظن أنه حل ما هو إلا متاهة للكل.

سكت فترة ثم قلت:

لن أعود إلى القاهرة. أنا في وسط البلد. لا. سوف أعـــود إليه.

جلست على حافة الفراش وبقيت أبكي.

❖

- ١٠ -

(قاسم فاروقي)

رأيت أضواء الفيلا من بعيد، ركنت السيارة ثم ترجلت. دخلت الحديقة ونظرت عبر زجاج النافذة. كان خالد جالسا يستمع إلى الموسيقى. رن صوتها في أذني:

سأرجعُ له.

تلصصت أكثر، حاولت أن أراها. واضح أنه وحده. ظللت أرنو إليه مسترجعا علاقتنا معا منذ أن عرفته. دائما نافر.... متباعد. أعرف أنه يكن لي محبة خاصة، ربما لأني لمست عالمه عن قرب دون أن أقتحمه. أحاديثنا التي كانت لا تنتهي... الصمت الذي تغلغل ببطء بيننا، صمت يزيد من عمق العلاقة وكأنه تخلص من الشوائب التي تعلق بالأفكار عندما تطرح.

ولكن أين هي؟ لا! ...لن أقلق. سواء رحلت أو رجعت، فالاختيار حق لها بلا جدال.

دخلت من الباب. رفع رأسه إلى ولم يتحرك. ابتسم فقط. ويا للعجب، ابتسامة مثل ابتساماته القديمة الحية. جلست وعندما انتهت الموسيقى قال لي:

- أهلا بقوادي العظيم.

كانت الكلمة نصلا حادا يتحدى كل العلاقة السابقة به. نظرت إليه جيدا وتمليته. هل هذا هو تصوره عن كل شيء؟ قواده العظيم" هو يريدني أن أرحل. تغير حاله في لحظة. لكني سأظل أفكر في جملته هذه

وقفت واستدرت ونظرت إلى الظلام والخواء الخارجي مستندا على حافة النافذة بكتفي. سمعت حركة قيامه من مقعده وأحسست به يقف خلفي.

قلت:

أين هي؟

أجاب بعد برهة:

أنا آسف.

ثم رجع إلى مكانه وأضاف:

كل ما يزاد علينا في الحياة هي القدرة على جرح الآخرين.

أجبته ساخرا ولكن بصدق:

لا أهمية لذلك.

فأجابني بنبرة خجول:

لقد احتملتني كثيرا. وهناك حدود للصداقة قد تخطيتها. لكن الأسف لن يغير شيئا. أعتذر مرة أخرى.

استدرتُ وقلت له:

أتعرف يا خالد، إن المشكلة الحقة هي أنك جعلتنا أقرب لأبطال الروايات...روايات الرعب والعبث الحقيقي. فما كنت تكتبه كان يجعلك كاتبا ثم تحولت إلي بطل الرواية نفسه. الكتاب يكتبون عن أبطالهم، قد يعيشون حياتهم لكن أبدا لا يكونونهم. أنت حولت نفسك إلى أحدهم، وتحولنا معك. الكاتب عنده الحماس للكتابة عن

مشاعر أبطاله ولكن عندما يتحول إلى مخبـــول تـــام فهـــذا يجـــب رفضه.

رفضه؟

ساخرا كالعادة.

ليس المهم أبدا أن تؤكد للآخرين أنهم أحياء لأنه لا عـــزاء في هذا ولا أهمية له.

ربما لا أهمية حقيقية له كما تقول وطبعا لا عزاء فيه.

لستُ أدري. ربما لأني فقدتُ القدرة على أي شيء، بما في ذلك الإيمان كما تقول.

أنت ترفض هذا وتقاومه وتنغلق في عالم بعيد.

لست أرفضه ولكني غير قادر على الفهم.

مرة أخرى!

حتى معرفة حل المعادلات لا يطمئنني. لقد فقدت القـــدرة على الراحة.

الشيء سهل. والمعادلة كما تناقشنا من قبل بسيطة بـــساطة ١+١= ٢

ربما تكون صحيحة لكن معرفة حل المعادلـــة يفيـــد فـــي إدراكها وليس في تفسيرها، ولا يثبت تكافؤ الطرفين.

المعادلة مفسرة علميا ومنطقيا.

أنا لا أتكلم عن التفسير العلمي أو المنطقي. بـــل أواجههـــا كإنسان بسيط له حق الفهم.

كنت أعرفه عندما يبدأ في الكلام بهذا الأسلوب. كـــان علـــى سجيته، وأفضل ما في الأمر أنه كان مطمئنا إلى. هنئتُ بهذا.

أكمل:

هذا لا يفسر ارتباط طرفي المعادلة.

قلت مترددا:

وجود الله كاف للتفسير.

صمت قليلا:

وجود الله كاف للحل، وإدراك صدقها ليس قابلا للتفسير. ربما قد تركها الله للإنسان لكي يفسرها... وربما هي أحجية.

لن نزداد إلا تشتتا إذا

قاطعني:

أنت كنت تقول أن على الإنسان أن يعرف الرموز الأساسية، والرموز تحل محل بعضها البعض. لكن انتظر هل ١+١=٢ التي نتكلم عنها هي نفسها ١+١=٢ أخرى؟ الالتزام الكامل لن يأتي بجديد.

نعم.

لكن هذا يجعلنا وكأننا نعيش دورات لا تنتهي. "عود أبدي" وهكذا يضاهي الخلق الجديد الخلق القديم.

لا يهم، لكني أعتقد أن الحركة هي التي تكسر تشابه كل شيء.

حتى الفعل ينساق للفكر السابق له. لا حل ولا خروج من هذا المأزق.

ثم زاد يائسا:

نحن محاصرون تماما، ولا فرار.

صحت قائلا:

يا أخي، ألا ترى الآخرين؟ تعَرف، افعل فقط، تحرك ولو حركة طفيفة.

كما تفعل هي؟! لقد رحلت ولم ترجع.

لم ترجع إلى بيتها. اتصلت بأمها فلم أجدها. تركت لي رسالة تقول فيها أنها ستعود إليك.

صرخ فيّ

لم؟ قل لي لم. ألا تفهم؟ أنت تستطيع أن يكون لك مُريدين، أما أنا فلا مريدا أريد ولا شيخا كنت.

أنت الذي يعاند، خُلق الإنسان كي يحتاج، مفطور على هذا.

أجابني وهو يبتسم وعيناه تلمع بإيمان بيّن:

أنا وحدي "مدينة فاضلة".

تركته وانصرفت دون وداع. وطوال الطريق عاودني اضطرابي وألح عليّ السؤال عن جدوى كل هذا. أما استقباله لي فظل يتردد مدى الطريق "قوادي العظيم".

- ١١ -

(خالد علم)

"كواندو كوربوس موريتور، فاك، أوت أنيميه دونيت ور پاراديذي جلوريا.
آمين.
Quando corpus morieteur, Fac, ut animae donetur paradise Gloria.
Amen.

وضعت المقطوعة على الإعادة، ما أن تنتهي حتى تبدأ من جديد. كنت أعرف أنها ستعود. ربما اتصلت بقاسم. هل يجهل مكانها فعلا؟

آه. قوادي! بالله كيف أجرحه هكذا؟
(أه والله وكيف تجرحك هي هكذا؟ وأنت ...)
اخرس.

(صمت.)

... آمين آمين.

(تململ ثم قال بوجل: لقد جاءت. ألمحها تتحرك بحذر في الحديقة.)

دخلت دون أن تتكلم وبهدوء. جلست على المقعد أمامي. لن أوقف تلك المقطوعة اللانهائية من أجلها.

لا أعلم عدد المرات التي تكررت فيها. ....هذا الثقل الذي يرجو رحمة ما.
كنت متيقنا من عودتها. تجلس على طرف المقعد مُسندة رأسها على كفيها وترتكز بكوعيها على ركبتيها. فلنظل هكذا للأبد الجحيمي. سأظل أراقبها دون أن أنظر إليها حتى تنتهي وتتلاشى بعذاب هذه الموسيقى الدوارة.

(لماذا تعذبها بهذا الشكل؟ أنت تعرف أنها لن تقاطعك أبدا.)

ترى أهي خائفة أم تعاند؟ تنظر إلى الأرض، لم ترفع رأسها إليّ قط. دهر ونحن معلقون في اللحن الدوّامي.

(بعد نظرة متأنية، أتظن أنك تعذبها؟ أنت جاهل وجهول. فيا صديقي، نحن لا نعذب إلا من يحبنا بحق. وهل تظن يا همام أنها تحبك أو تأبه بك. أين قاسم فاروقي من هذا الموضوع؟)

أهملته، ولكن الموضوع باخ. قمت وأغلقت الجهاز. رجعت دون أن أتكلم وجلست على مقعدي. لم تعلق، زيادة في تمسكها بالصمت فترة أطول. ثم بعد برهة قالت:
- ما اسم هذه المقطوعة؟

أأعجبتك؟
أهو دعاء ما؟
Quando corpus morieteur, Fac, ut animae donetur paradise Gloria. Amen.

نظرت إلى مستفسرة. فأكملت:
"بينما جسدي مصروع بالألم ، برحمتك تسري روحي إلى فردوسك. آمين.

تريثت قليلا ثم قالت:
أيهما أصعب: الإلحاد أم الإيمان؟

فكرت ثم قلت:
أعتقد أن الإلحاد أصعب، لأن الصمت أصعب من الصوت.
أتفق معك. لكن الصمت قد يكون إيمانا أو إلحادا.
نعم. وقد تنعكس الآية. فالصمت قبل وجود الصوت كان هو الإيمان، لكن بعده صار هو الإلحاد....
شعرت بألم في صدري، وأكملت:
قد أكون أنا في مرحلة ما قبل الخلق.
لكن الصمت لا ينفيه الصوت دائما.

هززت كتفي.

(غلبتك. جرتك إلى حوار دون أن تدري. عن أي خوف لديها تتكلم؟)

هززت كتفي مرة أخرى وقلت لها:
قاسم كان هنا.
أومأت برأسها بحركة سريعة وقالت:
نعم. اتصلت به.
كان قلقا عليك.
سخرت قائلة:
حقا؟ ولم لَمْ ينتظر رجوعي؟
ربما لأنه لم يكن متأكدا منه.

ثم أضفت:
رحل غاضبا مني كالعادة.
وقفت واقتربت منها قائلا:
سالومي لقد أخطأنا نحن الثلاثة.
نحن الثلاثة؟
قلت غاضبا
ها. أهناك آخرون لا أعرف عنهم شيئا؟
قالت بتحد:
ماذا تقصد؟
أقول ربما كنا أكثر من ثلاثة.

(أنا لا أصدق. غليظ ورذيل. اصمت قليلا.)

ردَّت:
انتقامي منك آت.

تركتني وصعدت إلى غرفتها. رددت: ثلاثة ثلاثة. تذكرت حديث قاسم عن الأعداد وهوسه وتنانينه التي تحرس الجنة. ثلاثة،

تحتمل إما: رجل وزوجة وعـشيق، أو امـرأة وزوج وعـشيقة.
تساءلت: ولكن ما معني ما نحن فيه؟
(معني؟)

صرخ في من حيث لا أدري.

(أتبحث عن معنى؟)

اختفى حتى قبل أن أنهره. مددت يدي ألتقط الكتاب الملقى على الأرض: سلطان العاشقين.

"وتلافي إن كان فيه ائتلافي بك عَجّل به جُعلْت فداكا"

❖

(قاسم فاروقي)

رسالة الوداع تركت كتاب ابن باجة وفكرت في كلامه عن مراتب الكامل:

أو تكون كاملا بكمالك الخاص، فتكون قد كملت في ذاتك، ولم تفتقر في الوجود إلى سواك، بل كل إنسان وكل موجـــود كائن فاسد نحوك، وبوجودك صار أولئك موجـــودين، و بوجـــودك أولا صرت أنت كائنا.....

تردد في عقلي صرت أنت كائنا.... صرت أنت كائنا.

تذكرت مبتسما في أسى: قواده العظيم

ذهبت إلى الهاتف، اتصلت به في العجمـــي. عـــساه لا يـــرد. عساهما لا يردان. بعد فترة رُفعت السماعة. جاء صوتها الذي كدت أنسى مقاطعَه المبهـــجَة:

أين أنت؟
كيف حالكما؟
عرفتُ أنك قد أتيت ورحلت دون أن أراك.
- أردت أن أطمئن عليك.

تمهلت ثم قالت:

تطمئن عليّ؟! هذه الزيارة من ستة أسابيع.

عندما لم يتصل بي أي منكما بعد زيارتي، أدركت أن كل شيء على ما يرام.

حسنا.

أين هو الآن؟

لا أعرف، أعتقد على الشاطئ.

صمت فسمعت تردد أنفاسها على الخط، قلت:

لماذا تلهثين؟

كنت أرقص. أستغل فترات غيابه الكثيرة على البحر وأرقص.

ثم أضافت:

ألا تريد رأسه؟ سآتيك بها على طبق من فضة.

اندهشت ورددت:

رأسه؟؟

لكنها أكملت دون أن تسمع:

أتعرف؟ أجده يمسك بالهاتف ويتصل برقم ما، وهذا الرقم لا يرد أبدا. فسألته ذات يوم بمن يتصل، ضحك وقال إنه يتصل برقم منزله. وأنه يحب التفكير في الرنين المستمر وهو يصل في البيت الخاوي.

لم أسمع ما قالته. كنت أفكر أحقا أنا أريد رأسه كما تقول هي... و... على طبق من فضة! طبعا من غيرها ممكن أن تفكر هكذا؟

أرأسه فعلا هو مبتغاي ومرادي؟

سمعت أزيز الخط المشغول. متى أغلقت الخط؟ وماذا قالت بعد ذلك؟

رأسه يا سالومي!!!

❖

-١٣-

(سالومي)

ما أتعس الرجال وأضعفهم! الآن أدرك أن الحياة ذاتها أنثـــى. الوجود الأصلي لك أنت يا حواء الخالدة. بضعة آلاف من خـــيلاء رجولية لا تمحو أبدا ملايين السنين من العزة الأنثوية.

يلعبان بي. لو تركت نفسي لمشاعري سأنتهي معهما. ولكن ما أروع اللعب! لا قيود ولا قواعد.

قال لي خالد مرة: "الحياة الكئيبة الرتيبة للناس..... له كـــل الحق. لكن هذه اللعبة تمنحني حرية الحركة، بشرط أن أكون يقظة دائما.

نعم يا سالومي. أنت ولن أدعك للآخرين. ما هذا الهـــوس؟ أصبحت أفكر مثلهما. هاَ! لكن هل ألمح في عينيه بعض التساؤل؟ لا يسأل ولكنه لا يعرف ماذا أدبر في اختفاءاتي الطويلة. لن يطول فضولك يا خالد.

قارب الكل على الانتهاء.

قبل أن أدخل محل الأقمشة قررت أن أتصل بأمي. ذهبت إلى سنترال المنشية. أتى صوتها ملهوفا:

أمي. حبيبتي. أوحشتني كثيرا.

كان صوتي نابضا بصدق أدهشني أنا ذاتي.

طال غيابك. هل أنت بخير؟ لم لم تهاتفيني من قبل؟

سامحيني. مازال أمامي بعض الوقت.

ألم ينتهي ما تفعلينه بعد؟ هل...

قاطعتها:

أمي أحبك. الرجال تعساء بحق. ما أروع أن أكون أنا.

كلامك لا يعجبني.

أمي. اسمعيني. سأضطر أن أتركك الآن. لا تقلقي من فضلك. أنا على خير ما يرام.

انتظري.

لا. لا. أنا في وسط البلد وسأقوم بشراء عدة أشياء. آسفة. سلام. سأتصل إن استطعت مرة أخرى. سلام.

وضعت السماعة قبل أن أسمع ما سوف تقول. ضايقتني المكالمة. كنت سأقول لها أني سأشتري قوس قزح. خفت. لا وقت عندي للعب بالكلمات الآن. رجعت إلى المحل. انتقيت ما أريد ورجعت إلى الفيلا. قابلني هاشا وهو يجلس ممددا في الشمس:

أهلا.

آسفة. اضطررت أن أستعير سيارتك دون إذنك. كنت نائما صباحا ولم أرك.

لا يهم. أرى أنك أحضرت أغراضا.

لم أشأ أن أقول له ما في اللفتين الكبيرتين اللتين أحتضنهما.

- هل لي أن أطلب منك شيئا؟

مد ذراعه للأمام ولوى شفته السفلى شبه مرحب.

الليلة سأرقص لك. لا تنزل من غرفتك إلا عندما تبدأ الموسيقى.

ابتسم مرحبا.

خطر في بالي ما قرأت:

الحركات الجادة المنتظمة تعبر عن الاحترام للآلهة الطيبة. أما الصخب والحركات العشوائية الماجنة فلقوى الشيطان الكونية.

❖

-١٤-

(خالد علم)

انسابت الموسيقى بعيدة حالمة داعية مغرية.

هذه هي الإشارة – البشارة.

نزلت تاركا نفسي مأخوذا بالموسيقى. هبطت إلى البهو فوجدته خاويا إلا من مقعد واحد موضوعا على صندوق عال. لم تظهر سالومي إلى الآن. لا يهم، قد تكون هذه هي الافتتاحيةَ. حاولت أن أعرف المقطوعة الموسيقية التي أسمع فلم أفلح. تركتْ كل النوافذ مفتوحة ووضعت شموعا كثيرة في كل مكان عدا منتصف البهو تطايرت الستائر البيضاء مع النسيم.

(ربما تكتفي برقصات النسيم تلك وتجعلك تنتظر إلى الأبد)

غير أن اللحن اختلف فجأة دون أن ينقطع، اقتحمت المكان ببذخ وبدأت في التلون مع دفقات الموسيقى. هي ترقص رقصة سالومي إذن. غلالات شفافة تتطاير مع كل حركة من جسدها.. ثم بشكل إيقاعي بطيء بزغ جسدها من خلال قوى الفرح القوس قزحي الكامن، حركاتها متناسقة متناغمة. يتعلق اللحن برتابة دون انقطاع ويظل النغم مشدودا كعذاب بِدومٍ ويدوم، تؤكده حركاتها التي تتشكل مع الإيقاع والتقاسيم التي تشرِّح الروح رغم استمرار النغم اللانهائي. هذه الثنائية المُشتتة الجارحة للروح بين استمرار

متوتر ودقات متتالية متناهية سريعة. جسدها هو الإيحاء بسحر التجدد الأزلي، شروقات شمس أبدية. حركة متتالية من سكونات متتابعة، سكونات تؤكد روعة التحرك. ترقص في عالم مواز، معي تماما وفي نفس الوقت مفصولة بحاجز نهائي.

كانت الغلالات تسقط بحركات متمكنة بديعة كأنها تنحل وحدها، ودون مجهود. كل غلالة على حدة، منفردة بمتع الحياة المستترة التي تتبدى. أمتعتني الرقصة وأرهقتني الغلالة الأخيرة التي لا تكشف جسدها، فقط تلمح به. تبرز مفاتن سماوية وتبشر بعوالم شهية سامية أُحن إليها بشدة.

راقصتي تدور حول نفسها وحول البهو كدوران الأفلاك الحُلمية، حتى اقتربت مني وطار الحاجب الأخير وارتمت في حضني مع آخر نغمة في اتزان وتوافق تام حتى صرتُ أنا أخيرا، رغم انتهاء اللحن، جزءً من هذا الطقس المضني.

- ١٥ -

(سالومي)

ألهث وأستكين تحت زخات المياه المنعشة. أتذكر رعشة جسده وهو يتلقفني بعد انتهاء الرقصة وأنا أرتمي في حضنه عارية. كنا منهكين بشدة. كان نبض قلبه المتسارع يخترق جسدي مُربكا إحساسي بضربات قلبي المتلاحقة هي الأخرى. رغم أني في البداية مع الخطوات الأولى للرقصة كنت أستشعر وجوده واضعة إياه في حسابي، إلا أنه بعد لحظات فرضت عليّ الرقصة نفسها وأصبح جسدي هو الوجود كله تراءى لي من ضباب اللحن وجه قاسم فاروقي وتناغم صوته للحظات مع الموسيقى إلا أنه سرعان ما اختفي هو الآخر. لم يعِ عقلي سوى اختلاف ألوان الغلالات التي أنزعها، ورغم أني قد تدربت على هذه الرقصة عدة مرات خلال الأسابيع الماضية إلا أني أدركت اليوم فقط أني قد رقصت. من قبل كنت أضع في اعتباري شكل كل خطوة وأحاول إجادتها والنظر لتشكلات البدن في المرآة ولكن اليوم أحسست أني كائن متفرد متسق مع نفسه، كامل تياه.

آه ما أجمل هذه الزخات. يبدأ قلبي في الرجوع لمعدله الطبيعي ببطء وراحة. أنسى كل شيء للحظات مستمتعة فقط بالماء الجاري. يؤلمني جسدي كله، غير أنه ألم مُدغدِغ كطفل مدلل. حملني بعد

نهاية الرقصة إلى حمام غرفتي. تركني وأغلق الباب بعد أن فتح المياه لي واطمئن من درجة دفئها.

الآن أسترجع كل شيء. الرقصة هي خطوتي الأخيرة في نظري وخططي. التخلص نهائيا من كل هذا بأية طريقة كانت. نعم، كان لابد من خطوة للنهاية..... الخلاص النهائي أو الرجوع النهائي إلى قاسم.... العودة!

حسنا، عندما تكلمت مع قاسم، طلبت منه أن يأتي غدا. فليأت غدا!

آه! كم يؤلمني هذا الجسد. كم أتمني أن أجده قد فرش لي سريري كله بالياسمين. مطلب ساذج وطفولي.

أغلقت الصنبور ووقفت أتنشف جيدا. لبست البرنس ودلفت إلى غرفتي، وجدته مستلقيا على فراشي، ونور خافت يتهادي من المصباح فوق رأسه.

جلست على المقعد المواجه لمرآة الزينة. ها أنا في المرآة تحوطني كل هذه الأشياء الضعيفة الإضاءة. رأيت جسده الممدد معكوسا في المرآة. مد لي يده ببساطة وبطريقة طبيعية. حركة خلت أنها منطقية تماما ومتماشية مع الأحداث. ظللت أنظر إليه. شعرت فجأة أني أحبه. أن هذا الجسد العاري أمامي يطلبني يحتاجني.... ذهبت إليه. مد يده وأطفأ نور المصباح. تراجعت قليلا ورجوته أن يضئ النور مرة أخرى. تحسست كتفه وظهره... كنت أفكر في قاسم. تدور مقارنات هناك رغما عني. ثم تذكرت صوت قاسم وهو يحذرني لا تقبليه في فيه حتى يقبلك هو في ثغرك. القبلة الحميمية موضوع خاص جدا لديه" أضحكتني هذه المعلومة وقتئذ وها أنا أتبع تعليماته حرفيا دون أن أعي.

كنت أنظر إلى جسده وأمر بإصبعي على جانبه. توجد شامة بنية مستطيلة تبدأ من أقصى عظمة الحوض وتغيب في شعر عانته. مررت عليها عدة مرات. كان لها إغراء خاص مذهل. كنت أفكر أن هذه الشامة شيء خصوصي ككنز مخبأ لا علم لأحد به. أنها تذكرني بشيء ضائع في حياتي. مررت عليها باشتياق صريح موجع. لا يعرف قاسم عن هذه الشامة أي شيء بالتأكيد. آه. لم تؤلمني هذه الشامة هكذا؟ ارتعش جسدي رعشة أدركها خالد فربت على برفق و حنان.

كان جسدانا يتآلفان أخيرا ويستجيبان لنشوة نقية خالصة. استعيد بتتابع علاقتي مع قاسم كأنها مجرد بروفة ختامية لخالد. تقابلنا معا وأحسست به كقاتل عنيف. لا أعرف هل شعر بانتفاضة الألم وهو يخترقني؟ وأنا في حضنه صرتُ أفكر هكذا يقحبُ الناس إذن!" ربما لم يشعر بشيء. نعم هكذا يقحب الناس. أهلا بك هيروديا جديدة ولننضم للأخريات.

أغيبُ في نوم خاطف عميق. هل ما أشعر به الآن من حزن طاحن هو المقدار الحقيقي لحبي لقاسم فاروقي؟ أفيق مرة أخرى. عيناي مبللتان. إذن هذا هو الوهم المسمى بالعذرية. ظللتُ كل هذه السنين أحمل وهما اسمه البكارة. وهمٌ يقابله ألم مبرح للحظات..... هكذا ؟؟!! ولا رابط صادق بين الألمين.

كنت في حضنه. تململ قليلا، حرك ساعده من تحت ظهري. نظرتُ إليه. سألني:

- عذراء!

وددت أن أشتمه. أن أسبه. أن أقول له أنت وغد. لكن كل هذه الأفكار انتهت فجأة وبسرعة برقية. أصبحتُ متباعدة كليا. كأن كل هذا عالم آخر مفارق. لا هو، لا أنا، لا الآخر. كان كل ما هو موجود داخلي بوضوح نوعا من التسامي. ببساطة لم أعد أنا، وكأن الأخرى ماتت.

قمت عن جواره وجلست أمام المرآة أمشطُ شعري ببطء، أحدق لنفسي، ثم قلت:

ماذا كنت تظن؟

لم أسمع ما غمغم به. وجدت منامتي، أخذت ألبسها. قلت له:

لقد اتصلت بقاسم وسيأتي غدا.

لم يجب. ربما نام. لم أكن أراه جيدا. سمعت صوتَ تنفسه البطيء المنتظم. تركت غرفتي وذهبت إلى غرفته. جلستُ أنتظر غدي وأفكر في فراشي الذي كان من الياسمين.

❖

- ١٦ -

(خالد علم)

توقف صوت اندفاع المياه نبهني فجأة واستعدت نفسي من الاسترخاء الحالم سريعا. دخلت الغرفة مغيرة في الانعكاسات الخاملة المنعكسة من المصباح الذي يعلوني. جلست أمام مرآة الزينة، ظهرها منحنٍ قليلا لجهة اليمين، تسند يدها على مقعد المرآة. كان أحمر الشفاه هو البقعة الحارة الوحيدة في كل هذه الانعكاسات. يوحي تموج شعرها باستكانة ما، وساقها الممدودة تناسب هذا الاسترخاء العاطر.

استدارت إلى. مددت لها يدي لكي تقترب. قامت بتمهل واقتربت مني حتى دلفت في الفراش. مددت يدي أطفئ نور المصباح. يعجبني شكل ساعدي المشدود وتوتر عضلاته المنعكس عليها النور ويروق لي. أطفأت الضوء واحتضنتها بحنان يملؤني شجن.

شممت طزاجة جلدها الناعم. دغدغ زغب شعيراتها خلف أذنها شفتي... كأنها صبية يابانية وديعة ورائعة. لعقت تلك الشعيرات باستمتاع وأناة حتى اقتربت شفتاي من فمها. تباعدت وهمست:

- لماذا أطفأت ضوء المصباح؟

أحكمت حضني لها وغصت في استداراتها اللدنة. تململت قليلا وارتفعت بجسدها عني وأضاءت المصباح. نظرت إلى من خلال خصلات شعرها وقالت:

أريد أن أتأملك. أن أرى اقتراب جسدينا.

أحسست بيدها على ظهري وجانبي. تهدهدني كطفل في مهد. لثمت شفتيها... أغرق في غلالاتها الألف... وفي مرفأها أرسو وأستكين، وتضيع من رأسي الأفكار سوى صوت قاسم وهو يردد إن معرفة الأعداد اللانهائية تليق بالخالق وحده تعالى." أردد لنفسي بل إن عالم الله بلا أعداد أصلا أيها الساذج. أما معرفتنا بها فهي التي تجعلنا مجبرين على فعل الأشياء وأحرارا إلى أقصى مدي في رفضها أيضا.

نظل نتوحد حتى نتلاشى. أفيق على تردد تنفسها فوق رقبتي، رتيب، قريب ولكنه أيضا غير مبال، قاس. تمددت على ظهري فاردا ساعدي. آلمني ثقلها الخفيف. غبت وأفقت. كانت ما تزال جانبي ضاغطة برفق على ساعدي، لكن هذا الثقل لم يكن ما يؤرقني حقا. يطفو شيء داخلي في أغوار الروح، يتغلب علي فانتبه مندهشا على صوتي الذي أتى باردا غير مكترث وأنا أسألها:

عذراء؟

قامت متباعدة وقالت:

ماذا كنت تظنُ؟ عاهرة؟

أجبتها

لا ... ولكن... عذراء!

كنت أفكر أنت أكثر تعاليا عن أن تكوني كان يجب عليّ أن أقول لها هذا.

(يا للخلط المشين!)

أف. لماذا ظهرت الآن؟

❖

- ١٧ -

(قاسم فاروقي)

لم أسافر في اليوم التالي كما قلت لها، كـــان علـــى أن أنجـــز أعمالا، لأني كنت في حاجة أن أؤجل لقائي بهما.

هاتفني خالد. لم يرحني شيء في صوته.

لماذا لم تأت؟ انتظرناك أول أمس.
عندي بعض الأعمال التي يجب أن أنتهي منها.

تردد قليلا ثم قال:
أريدك أن تأتي من فضلك.
صوتك حزين.
لا أعرف.
هل أنتما بخير؟

بدا صوته أكثر حزنا وهو يرد شاردا:
ما معنى رقم ٣ عندك؟
نعم؟
ما معنى رقم ٣ عندك؟
ضحكت وقلت:
- ماذا دهاك؟ لماذا أنت هادئ بهذا الشكل؟

إذن متى ستأتي؟
غدا. لن أتأخر. هل أستطيع أن أكلمها؟
آسف. هي نائمة.
إذن فلقاؤنا غدا.

وضعت السماعة وأنا أفكر في تلك المرارة الحنون التي كانت تميز صوته. تمددت في فراشي أفكر في أسئلته الحيرى دائما. ثلاثة.... الثلاثة هي مجموع الوحدة والكثرة. الثلاثة هي التي تناغم تفرد الواحد الفرد وتعدد الثنائية.

لا !

هزني صوته فجأة:
انتظر! أنا الإله "تحوت" قلب رع. كاتم سر الآلهة الحكيم.

كانت هيئته مهولة ومرعبة. رأسه بمنقار أيبس ضخم. يحمل فوق رأسه قمرا منيرا مكتمل الاستدارة. نظر إليّ قائلا:
أنا رسول الآلهة القاسية الغضوب. أفتح لك أبوابا مُشعْوَذة بقوة سحر الكلمات اللاغية التامة. الكسوف الكلي للشمس. ومن تل الأزل أهديك هذا.

أمسك بيدي ووضع فيها مثلثا صغيرا، ورغم رعبي انتابتني فرحة طاغية كطفل تتفتح أمامه أفاق لم يسبق أن رآها. غير أن هذا المثلث ما لبث أن تلوى في يدي. أصابني الهلع وحاولت أن أرميه إلا أنه تعلق في الهواء. أخذت أدقق النظر فيه من ذهولي.

كان المثلث مكونا منا نحن الثلاثة. يداي تمسكان يديه في رأس المثلث، وهي مفرودة الذراعين تمسك قدمينا، كل من جهة. ثم تقلبت وأصبح جسدها كله داخل المثلث وسندت كل قدم على أحد منا في وسطه. أصابني ألم وانتشر المثلث في الظلمة حولي. كنت أرتعش بعرق بارد. أتاني هو ومن ورائه لاحت هي. مد لي يده وقال:

– غص في الحلم حتى الموت وارتج وانتفض بعذابات الحب والكره، فسيان عندي يا صديقي أن تكون أولا تكون.

ثم اقتربت هي حاملة طبقا من فضة تلمع. نظرت إلي وابتسمت.

هببت مفزوعا وأنا أردد "يا للرعب"

كانت تجلس في حضنه عندما وصلت. مستلقيا على الأريكة الخشبية في الحديقة. كان يلف ذراعه حول خصرها. رأسها مائلة قليلا على صدره. رداؤها أحمر قانٍ. هي مختلفة دون شك. نظرتُ إليها. عيناها تصدانني، أما عيناه فيحرقهما الحزن. لم أكن واهما على الهاتف. هو حزين فعلا. جلست أمامهما. حياني:

- أهلا قاسم.

أهلا.
أضاف:
صديقنا العزيز.

لم تعلق هي. سألتها:
كيف حالك؟ سالومي.

نظرت إليّ وابتسمت متباعدة وقالت:
رائعة.

هم خالد وقبلها ثم قال:
هنئنا. سنتزوج.

نظرت إليها وأنا أقول:
مبروك.
ستكون شاهدي.
شاهدك!

قامت مستأذنة دون أن تنظر إلينا. كررت:
شاهدك؟ كنت قوادك في يوم ما.

نظر إليّ ثم قال:
لم أعهدك قاسيا.
إذن أتركُ لك أنت كل القسوة.

قام ومد يده وأمسك يدي وضغط عليها وهو يقول:

عمري كله أعزك وأحترمك. قدرك عندي يفوق كل حد.

فكرت وأنا أستمع إلى هذا الكلام أنا لا أعرف هذا الشخص.
ابتسمت وربت على يده وقلت
أشكرك.

نظر إلى الأرض وأضاف دون أن يواجهني:
أنا آسف.

استدرت وتركته دون أن أزيد. ولجت إلى الداخل وصعدت إلى غرفتها. وجدت بابها مغلقا. طرقته بلطف. جاء صوتها باردا متعاليا:
ادخل.

قالت عندما رأتني:
كنت أنتظرك.

في نبرة صوتها تماسٌ مع نبرة صوته التي أعرفها. لا، ليست النبرة بل التجافي المر.

مبروك.
على...؟
الزواج.

ابتسمت ثم قامت وقبلتني على ثغري سريعا كأنها تكايدني. أشحت برأسي مبتعدا.

ماذا هنالك؟
ألم أقل لك سآتيك برأسه.

كانت تتحداني. نظرت إليها متفرسا على أفهم. لم تكن غاضبة أو مضطربة كأنها تتحوصل.
انتابني القلق عليه. قلتُ وأنا أحاول أن يكون صوتي محايدا تماما:
حذار!

سخرت قائلة:
بل احذر أنت.

ثم أضافت بلهجة ملول وهي تستدير:
أرجوك ! أريد أن أستريح قليلا.

تركتها وهبطت إلى البهو لم أخرج إلى الحديقة حيث تركته. جلست على نهاية السلم أفكر:

"الصخور تتآكل، أما الأحياء فسبب موتها السأم.

❖

- ١٨ -

(سالومي)

تقلبت في الفراش أفكر في جسد قاسم الذي غادر منذ قليل. رغما عني تذكرت عندما كنت أمشي بجواره في الشارع في بداية معرفتي به، وأنا متأبطة ذراعه ومائلة علي أذنه وأهمس له بسخرية على أشكال الناس المضحكة وهو يضغط على يدي برفق حتى لا يسمعنا أحد ممن أشير إليهم. رجل بكرش هائل تتبختر بجواره امرأة ذات مؤخرة عظيمة. أتذكره يكتم ضحكة بشوشة وأنا أستزيده بهمس لاذع.

طرق الباب مرة أخرى. كان خالد هذه المرة. قال إن قاسما يدعونا على العشاء الليلة، وسألني هل أريد أن أسهر. قلت وأنا أتحسس ملمس الحرير على جسدي متقلبة في الفراش:

ولم لا؟
سننتظرك بأسفل.

أغلق الباب بهدوء دون أن يقترب. تركت نفسي أستسلم لنعاس رقيق.

جلست بينهما في بهو المطعم. لم يكن المكان مزدحما. كانت الأعمدة مغطاة تماما بالمرايا. نظرتُ إلى المرايا المقابلة لنا. لم أر نفسي بينهما. وجهاهما متقابلان، وكأني أسقطتُ عن عمد. عدت أفكر بوضعنا. هل يرى أي منهما نفسه بين الآخريْن؟

أعدت النظر إلى وجهيهما المتقابلين مرة أخرى وفكرت: ما أبأس الرجال.

أمسك خالد يدي وسألني مداعبا:
لماذا تبتسمين؟
فنظرتُ إلي قاسم وقلت:
تذكرتُ أنثى قاسم التي كان يتكلم عنها في بيته.

لم ينطق قاسم ولم يلتفت إليّ. سأل خالد:
هل تودين الرقص؟
لا. فمرة واحدة تكون دائما أكثر من اللازم.

فاعترض قاسم قائلا:

هذا في مخيلتك أنت. الموت فقط هو ما ينطبق عليه هذه المقولة.

أكملنا عشاءنا في صمت متقطع، ثم خرجنا فأنعشني الهواء. تمشينا قليلا إلى موقف السيارات وعند اقترابنا من السيارة قال قاسم:

لا أريد أن أقود الليلة. لقد أنهكني سفر اليوم.

وبحركة مفاجئة ألقى بمفتاحها في اتجاهنـــا. كانـــت الحركـــة بسيطة وتلقائية. وجدت نفسي أمد يدي وألتقطه. خالد لـــم يتحـــرك. كانت حركتي أسرع من تفكيري. أنا أيضا لا أريد أن أقود. أعطيت المفتاح لخالد. أخذه دون كلام. فتح باب السيارة لي. دلفت داخلهـــا وجلس قاسم في المقعد الخلفي. التفت نصف التفاتة لأنظر لقاسم.

كان الليل جميلا صافيا كقلب مُرحِّب منتظر، وغرق كل منـــا في أفكاره متلاشيين مع السيارة التي تخترق هذا الكون الواسع.

- صفر -

سيارة ما تنطلق في طريق خاوٍ وليل رائع. المرأة ملتفتة تنظر إلى الجالس في المقعد الخلفي تحتضن مسند مقعدها. يراقب السائق الدوران المستمر لإطار السيارة التي تتعداه الآن. يردد أن الفكرة حلزون لا نهائي. تختفي السيارة ويستعيد الطريق خواءه.

تلمح المرأة نظرة اهتمام في عيني الجالس في المقعد الخلفي. تنظر للأمام ثم إلى السائق. الطريق ملتو ويقابل السيارة من بعيد حائط عريض عال.

ينظر السائق إليها، تلتفت هي وتقبض على ركبة الجالس بالخلف الذي يمد ساعده و يضغط بيده على كتف السائق.

ينظر السائق إليه في المرآة العاكسة ويبتسم. يضغط على دواسة البنزين وتسرع السيارة لحد جنوني. لا يعترض أي منهما. يسرع أكثر ويترك السيارة تصطدم بالجدار وتتحطم.... وآهة يائسة حارة نائحة تتصاعد لعنان السماء من حنجرة آسية... .

❖❖❖

... إن خالد علم" لديه قدرة عالية جدا على التدمير، لكن لكونه شخصا مهذبا، سيدا حقيقيا، فهو يبدأ دائما بنفسه. ربما لأنه لم يعد يؤمن بوجود الآخرين، فوجوده نفسه يزعجه لأنه بالنسبة إليه غير يقيني، وجود تماسيّ على الأكثر، أو وجود حرفيّ مخادع وزائف. أو هو يكره وجوده لأنه يشعره بالآخرين الذين لا يؤمن بوجودهم، غير أنه يخاف أن يصيبهم بكل الطاقة المدمرة داخله، ولهذا فهو يسعده أن يبدأ بنفسه دائما، يهدها جزءا بجزء

تصميم الغلاف: ـرو الكفراوي

دار شرقيات